سـر بنـات الغرفة

رواية

أماني عنان

سر بنات الغرفة

رواية للكاتبة المصرية: أماني عنان

تصحيح لغوي : هدية علي

المراجعة النهائية : خلود سالم

رقم الإيداع: 28169/2022

الرقم الدولي :978_977_6994_66_9

الطبعة الأولي :2022 ورقية.

" ممنوعةً من البكاءِ ...
مدفوعةً نحوَ مصيرٍ لم اخترهُ ولم أتمن أن أعيشهُ يوما "

الإهداء

إلى القلوب النابضة التي تبحث عن السعادة بين طيات الورق...
إلى العيون الجميلة التي تقرأ...
إلى العقول المتفتحة التي تفهم وتقدر قيمة الأدب ،أهديكم كلماتي ومحبتي.

أماني عنان

"عندما ترى كيف يُعاملون الغرباء من حولك؛ تتمنى لو تُصبح غريبًا مثلهم، فما حاجتك لقربٍ يأكله الجفاء!"

(١)
لمياء

امرأة من السبعينيات

تعرف كيف تواجه خيباتك؟ إنها اللحظة الأكثر غرابة في حياتك التي تكتشف فيها أنك خُدعت، انسقت كبهيمة مغمضة العينين نحو مصيرٍ لا تريده ولم تتوقعه يومًا، أُستنزفت حدّ الفراغ لحظة حرجة يصعب التعبير عنها ورغم ذلك تُمسك بالقلم وتُحاول بثّ الماضي على الورق تبدأ من حيث الأنين فأكثر ما يُتقن القلم كتابته هو الألم وكأنه يتفنّن في إبعاد الشبه اللغوي بينهما، تُوجد علاقة بلاغية مهما فعل بين قلم وألم جناس ناقص، أختلي به وسط الجموع ولا أبالي فما بداخلي من صراع كافٍ للهرب من وجوههم المنتشرة الجامدة كأنهم _مانيكانات_ لعرض ملابسهم ومقتنياتهم، وعندما تنظر إلى داخلهم تجد متاهات لا تؤدّي إلى نفع، شيخوخة مُرة أصابت حاضرهم، روتين مبيد بدأ ينهش سعادتهم، لستُ وحدي من تُعاني بعد الزواج، إنها سِمة العصر، تعدّدت حالات الطلاق، في كل دقيقة من اليوم تقع امرأة من نظر المجتمع، ولكنها امتلكت حرّيتها ناجيةً بنفسها وأطفالها من براثن الجهل والتخبّط وراء أمثالكم المهترئة.

"ظل رجل ولا ظل حائط"

للأسف أصبح ظل الحائط أفضل في زماننا هذا، لو كانت قائلة هذا المثل أنثى للعنت نفسها ألف مرة من وراء ترهات ألقتها ذات مسامرة بائسة، كم من الضحايا تقبلوا الذل راضين بهذا الظل المخيف، المثلج بلا دفء، الخاوي من معالم الرجولة.

وقبل أن أبدأ محاكمتي وأتحيّز للنساء دعوني أُخبركم من أنا، وماذا أفعل هذا المساء.

كُتب بتاريخ 17 مارس، قبل موسم الزهور ببضعة أيام...

اسمي لمياء..

عمري على ما أذكر ستة وعشرون عامًا.

يُمكن أن يزيد عامين أو أقل قضيتهم في زيجتي من شريف، ما أجزم به حقًا آخر يوم احتفلت بعيد ميلادي، كنا ما زلنا خطيبين، عصفورين يحلقان بأجنحة ورقية، يسبحون

بحرية في سماء الآمال الشبابية التي تتكرر يوميًا، هنا سرنا عند تقاطع أشعة الشمس الراحلة مع أمواج النيل الهادئة كمن ابتلع للتو حبة مسكّن عالية المفعول أفقدته أوجاعه وهموم المارين عليه، شهد على حبنا عندما قال بعيونٍ مغمضة بفعل قوة الغروب:

"أحبكِ" مشاعره جمّة، كأنه يختزلها منذ زمن، برغم علاقته بأميرة التي سبقتني ببضعة أشهر لم أجبه بما ينتظر، طال الصمت بيننا، عاود وصف مشاعره بقوة حيث ربطها بالفعل وقال:

"سأتزوجكِ، أنتِ لي ولن تكوني زوجة أحدٍ غيري، مدام شريف نور الدين."

أعجبت بجرأتك، ثقتك بالغيبيات، إيمانك بحبك من النظرة الأولى جعلني أستسلم مبدئيًا قائلة:

"دع أمر الزواج لله، أنتهي أولاً من الجامعة وبعدها يُمكن أن نُقرر، لا أؤمن بفكرة الوعود بعيدة المدى، يُمكن أن تتغير مشاعرك تجاهي من ليلة وضحاها."

قال بصوت حازم:

"تحدّثي عن نفسك أما مشاعري فأنا كفيلٌ بها."

أضحى شكل علاقتنا مثالي، ارتقى بذاته كليًا معي، ولكني لا زلتُ في حيرة أتساءل:

"هل شريف شاب نقي النفس والنهج حقًا، أم أنه يجاري فكري ليكسب ودّي؟"

لا يوجد إجابة حاضرة، الأيام وحدها تعلم الحقيقة، تركتك بعد دقائق من اعترافك، أسير بقدمٍ والأخرى أتراقص، الفرحة تغمرني، كما تفعل أي فتاة عرفتُ أنها موضع اهتمام أحدهم، موضع حب وثناء، مضيتُ كالمجذوبة لا أرى سوى تدفق النهر مع أنغام سيمفونيتك، بدأت رحلتي الشهية، الآن فقط أقلعت طائرتي لترسو في مطار الحياة، انتظرتُ الحب طويلاً ولم أفُز به إلا في الجامعة، العام الأخير من كلية التجارة، أنهكني السير، نظرتُ حولي فوجدتُ الأسد اقترب على يميني، إنه آخر الكوبري، تبعد محطة المترو أمتارًا قليلة، أسرعتُ إليها خشية أن يدخل الليل ولا أجد مبررًا لتأخّري، استقلتُ المترو من محطة الأوبرا عدة محطات واتت البحوث أسكن منطقة بسيطة تُسمى بين السرايات..

رنّ الهاتف بنغمته "بتنسّيني حياتي وتفكرني ليلاتي ازاي أعيش من غيرك وأحكي لمين حكاياتي؟"

علمت أنه أنت؛ لأنها أغنيتك خصصتها لك فقط، أول كلمات لن أنساها ما حييت، بعثتها لك أكثر من مرة على مواقع التواصل الاجتماعي علّك تذكرها وتبتسم عندما تسمعها مثلي، أجبتك بلهفة طالبةً المزيد من الحنان والرقة فقلتُ:

"وصلتي؟"

- **ها أنا أسفل البيت، أغلق الخط وبعد نصف ساعة سأعاود الاتصال.**
- **نصف ساعة! كثير، ماذا تفعلين فيها؟**
- **شريف، لا تمزح معي، اعطِ لي مساحةً خاصة ولا تنتهكها أبدًا مهما كان مسمى علاقتنا. تراجعت قائلاً:**
- **متأسف لم أقصد إزعاجك، كل ما في الأمر أني أفتقدك، الوقت بدونك لا يمر صدقيني، اعتدتُ على وجودك معي..**

قالها اعتاد على وجودي، لا يدري أن هناك فرقًا بين الحب والتعوّد، الحب أعم وأشمل من التعود، الحب لا يحل محله آخر إنما بالتعوّد يمكن أن نعود أحرار بلا رفيق، وربما جئنا بغيره ليملأ فراغه ببساطة، كلما تقدّمت قابلتك رائحة الطعام مرحّبة، مطعم الأسماك في بداية الشارع العمومي والدجاج في شارع السوق الجانبي وصلتُ أخيرًا عمارة رقم 13 الدور الثالث - بيت الطالبات؛ سُمي كذلك لأن الأغلبية طالبات ولكن الحقيقة أنهن خريجات، رفيقات سكن، أتت أركيدة عبد الله لأخذ دبلومة تخاطب بعد إتمامها ليسانس علم نفس، تسعى لخلق فرصة عمل فلم تنتظر التعيين الحكومي، قررت أخذ الدبلومة سريعًا، عزمت الأمر لكي تعود بلدها وتبدأ رحلتها الحقيقية صاحبة مركز تخاطب وتعديل سلوك الأطفال.

الثانية هديل ترجمة إنجليزي، تعمل سكرتارية في شركة لا أتذكر اسمها لأني جديدة معهم لم أكمل أسبوعين منذ بدء العام الدراسي الجديد، منزلي في منطقة نائية بعيدًا عن الجامعة لذا وافق أبي على فكرة السكن مع الطالبات..

الأجواء هادئة وأمورهن مستقرة، أم ناهد صاحبة الشقة سيدة متدينة، زوجها نحسبه على خلق، قابلته أمس صاعد الدور الرابع ولم يرفع عيناه فيّ، فعل لائق بلحيته التي تزين وجنتيه بالإيمان. زاد ارتياحي للمكان وأصبحنا كالأسرة الحقيقية مكونة من أب وأم وأبناء، كنتُ من الأبناء لصغر سني، دلفتُ إلى الشقة بمفتاحي الخاص من يدفع أجرة الشهر يمتلك مفتاح ومن يسكن ليومٍ أو يومين لا يملك سوى طرق الباب، الفتيات

جميعهن مستغرقات فيما أتين لأجله. دخلتُ غرفتي، ألقيتُ بالكتب إلى جواري، تنفستُ بعمقٍ ممزوج ببعض الاطمئنان، قبل شريف كنتُ وحيدة والآن تحتلني تفاصيله يومًا بعد يوم، الشباب ليسوا متشابهين، أسمعتني أمي تحذيرات كثيرة حول نوايا الرجال ولكني لا أخشاهم، لن يستطيع سلبي ما لا أريد، كل ما أخذ كان بالإرادة أو بسوء التقدير والسماح لهم بتعدي مساحتهم المباحة.

لن أتعجّل أو ألقي بمشاعري دفعة واحدة فيشرب ويرتوي ثم يتركني كالفراشة مُحلّق على زهرة أخرى يرتشف رحيقها، قُلتها بصوتٍ مسموع: أنا معك ما لم تُعكّر صفو ارتباطنا.

كررتها.. أنا معك. فتحت أركيدة الباب وقالت مباغتة:

- **مع من تكونين يا ساذجة؟**

كانت جادة بما يكفي لتُعين عسكريًا أو حارس عقار، أربكني سؤالها فقلتُ نافية:

- **لا شيء، ربما خُيّل إليكِ.**

تكلمتُ بهدوءٍ مُعلنةً انسحابها ببطء من حوارٍ خاص مع غريبة لم تفتح قلبها لأحد بعد..

- **ربما أدرس في الصالة. اخرجي نتحدث سويًا إن أردت، سئمت رتابة المذاكرة.**

استقرت أنفاسي بعد خروجها، شعرت كأن أمي أتت من البيت لتؤنّبني على انخراطي بشيء سوى الدراسة، تلجلجتُ كثيرًا ولم ينفلت لساني بكلمة، لن يتفهموا طبيعة علاقتي بشريف، بالنسبة لي هو صديق، أخ يُساعدني ويحمل عني عبء وحدتي بلا أهل، بدّلت ثيابي بأخرى مريحة ثم لحقتُ بها، وجدتُ بعض الروايات الكبيرة على الطاولة تساءلتُ:

- **من المثقف طويل البال ليقرأ هذا الكَم من الصفحات؟**

علت ضحكاتها فجأة معلنة براءتها منها، ثم وضعت يدها على فمها قائلة:

- **اصمتي لكي لا تسمعك، فتبني بينكما حاجزًا قبل التعارف.**
- **من الواضح أنها زائرة جديدة. قلت:**

أين هي؟

قالت بأسلوب المُخبر:
"إنها يمنى صديقة هديل."
"من الفيوم، أيضًا؟"
قالت بتأفف: "نعم، ولكن ومن قال إن هديل من الفيوم يا أذكى إخوتك؟"

- **هديل من شمال سيناء، ويمنى من الفيوم.**
- **تشرفنا. أصبحتا فريقًا بصداقتهما القديمة إذًا لا تنظري لهما هكذا، أنا أقدم منكِ وأعرف كم هما نقيتين من الداخل، تحبان الخير للجميع، صدقيني صحبة لن تنسيها مهما تقدمتِ بالعمر.**

قلت بسخرية:

- **يبدو أن مدخل علم النفس الذي تحمليه أثّر على عقلك، سأذهب لأنام. مشقة السير أفقدتني قدرتي على الاستيقاظ أكثر من ذلك.**

قالت باهتمام: علّه يفقدك بعض الكيلوجرامات من الدهون! نظرت إليها بسلام قائلة: صفت روحك عندما تعادلنا، هذه بتلك قبل أن أختلي بغرفتي.
صاحت أركيدة: لا تُغلقي الباب من الداخل، الضيف الجديد سيحل على غرفتك يا عزيزتي.

- **آخ، صاحبة الروايات الضخمة حتمًا هي بشرية برأس تنين صبور محبط من الروتين.**

تتسلل على مرأى من الجميع، تمد يدها بحرارة لتوقظني، تقلب جسدي يمينًا ويسارًا، أشعة الشمس تزداد، قلت كيف فتحت الستائر مع إغلاقها بنفسي؟ ناديت بصوت متحشرج يسطو عليه النعاس:

- **أغلقي الستائر، لا أريد الاستيقاظ باكرًا.**

جاء ردها غريبًا، مجرد تصفيق.. جعلتني أعتدل مسرعة، توسطتُ السرير، مستجمعة طاقتي الشريرة لأقاتلها بعنفٍ فقلتُ:

- **لم أرو لكِ قصة بلادتك لتصفقي، لمَ لمْ تُغلقي النافذة؟**

اتسعت عيناي قليلاً، قضمت نصف شفتاي من الإحراج، إنها تصلي الفجر لذا لم تجيبني لفظيًا، شعرت بقلة حيائي وتسرعي، اعتذرت منها على عجل قائلة:

- آسفة، لم أكن أدري.

أعطيتها ظهري لأكمل أحلامي، أريد رؤية وجهك بوضوح، شفتاك الناطقة بأرق الكلمات، عيناك السوداء دائي، مرمى السهام، تغرقني بعمق المستكشف ولا ينقذني منها سوى يديك عندما نعبر الشارع معًا، تنتشلني من التيه بسلاسة، لاحظتُ أنك تسير نحو السيارات تتعمد مواجهة الخطر لتلامس أصابعي تحت مبرر قطع الطريق، تدّعي الفضيلة وبداخلك بركان عاطفي مجبر على الخمول، ها قد رأيتك، عضلاتك المفتولة أفضل من وسادتي، وضعت رأسي برقة وتنف... قاطعني صوتها:

- **ألن تصلي؟من استيقظ وجب عليه الفرض، لبّي النداء ولا تتركي نفسك دمية في يد إبليس.**

ذهب طيفك عندما سمعت غيري:

- إن شاء الله سأصلي..

لم تتركني إلا وأنا أمامها تدفعني من الخلف بلطفٍ مستطردة:

- الصلاة تريح القلوب، إذا فعلتها بحب تحولت إلى حياة مكتملة الأركان لن تجدي راحة إلا بها، إنها جزء لا ينفصل من كيانك، فقد كان يقول سيد الخلق أجمعين عندما يحين رفع الأذان "أرحنا بالصلاة يا بلال"

فهي تُريح النفس وتُطمئن القلب، تُغدق على صاحبها بالسكينة والسلام إنها عبادة راقية ونعمة ليست مجرد تكليف على المسلمين بدليل ما يفعله الغرب من رياضات تشبه تمامًا مواصفات الصلاة يسعون إلى إخراج طاقتهم السلبية وإجهادهم في الحياة عن طريق اليوجا وغيرها من الحركات التأملية...

******

(٢)
تمارى

نغمات جاحدة تعزف على أوتار قلبي المجروح، تنزف دمًا، أرى قطارته بعيني، كلما سمعت هذه الأغنية تذكرت حمدي، يمكن أن نوصف بأغنية، نبتسم، نبكي، نلعب ولكن المؤسف أن تعلم أن هناك أغنية تُميت، تنزع روحك من أعماقك لتتمزق أمام عينيك، عندما تحل عليك بعبق أيامٍ مَضت، تلاشت رغمًا عنك، ستُقابل غير من جال بخاطرك الآن وربما ستتزوج ولكن لن تنسى حبك الأصعب، ليس الحب الأول ما يبقى ولا الأخير إنما هو الحب الأوجع، الأكثر فجيعة وخذلان، تذكرتُ كل شيء، فتحتُ صفحتك أمامي، رأيت عينيك الخضراء كبستان التوت الأخضر منفرد بذاتك متعجرف بكينونتك..

"على حسب وداد قلبي يا بوي، راح أقول للزين سلامات، على حزب وداد قلبي يا بوي، ضيعت عليه العمر يا بوي دا أنا ليا معاه حكايات، حكايات، حكايات..."

ضيّعت عليه العمر..

لم أقضِ معك سوى عام وبرغم ذلك ضاع العمر عليك، على ذكرياتك ووعودك الكاذبة.. أتذكر تلك الطرقات، الحي الثامن، شارع العقاد، شارع مصدق، صوتك ساكن بنيانهم، عيناك المتطلعة للعمارات تنظر إليَّ بعمق المستهزئ كلما مررت بها، أتحاشاك قدر الإمكان لأكمل حياتي بدونك، أذكر يوم الأحد الثاني عشر من فبراير، الأمطار تتسابق في السقوط، تروي ظمأ الشوارع، تُزيّن الطريق أمام العاشقين، نسير نحو اللا شيء، نمضي سويًا وحسب، يومها سألتك قائلة:

"أتحبني بصدق؟"

كنتُ أتساءل لا لأعرف مدى حبك، ولكني أردت أن تُثبت لي وفاءك، تمنيتُ أن تبقى معي إلى الأبد، قلت بجنون:

"نعم أحبك."

تصرخ بثقة وكأنك قشة في مهبّ الظروف فجأة تغيّرت وعودك، ذهبت مع نهاية الموسم، جفّت مثل رمال الصيف الحارّة، هجرها المطر بلا رحمة وتركها مشتاقة تنتظر هبوطًا رحيمًا..

قلتُ أمازحك:

"أريدك أن تتنازل لي عن نفسك."

جاء ردك بمنتهى السرور: "موافق طبعًا، أين تُحبين التنازل، مستعد ولو هنا في الشارع."

تبسّمت بسمة خفيفة، كلماتك محملة بالإيحائات الغريزية ولم أعنها أبدًا أو أرنو إليها، قلتُ موضّحة مقصدي علك ترتقي قليلاً وتبتعد عن نصفك الأسفل:

"أقصد تنازل كتابي، مثل البيع والشراء، أليس جسدك ملكًا لك؟"

نعم،

إذًا، بعني إياه.

نظرت إليّ بتعجب ثم قلت بثقة:

"موافق، إذا كان ذلك يريحك."

تعلم أنه لن يحدث، تفكر كثيرًا قبل أي شيء، تحسب خطواتك بعناية، تماشيت معي لأنه مجرد كلام لن يصل إلى مراتب التنفيذ، أتت رحيق تمشي على أطراف أصابعها، نزعت سماعة الأذن مني قائلة:

- **ماذا تفعلين بمفردك، متقوقعة خلف هذه الشجرة؟**

نزعتُ إحدى الورقات الخضراء مؤكدة أنني هنا معها، في الجامعة ولستُ معكِ في نزهة كما اعتدنا، نظرت إليها بضعف، عيناي مرقرقة بالدموع، اقتربت رحيق وضمتني إلى صدرها قائلة:

- **لا زلتِ تذكرين هذا الوغد! قلتها مرة وسأقولها مرارًا لا يستحقك، أنتِ فتاة مميزة يا تمارى، عيناكِ واسعة وليست ضيقة مثلي، شعرك انسيابي أملس وليس مجعدًا مثلي، بشرتك بيضاء انظري..**

رفعت يديها لتُريني اختلاف الدرجات بيننا ثم أكملت:

- **شفتاكِ مرسومة تُزيّنينها دومًا بألوان الكرز، أما أنا فحياتي معقدة ومع ذلك أبتسم وأواسي نفسي بخلقة ربنا والنصيب.**

أجبرتني روحها الجميلة على الحديث فقلتُ بتماسك مصطنع:

- أعطيه وقته، فترة حداد وستمضي، أما بخصوص الجمال فلا تُقارني نفسك بأحد، أنتِ مختلفة يكفي صوتك العذب عندما تُنشدي للدفعة، لن يجتمع الكمال في بشري صدقيني جميعنا ينقصه شيء.

صفنت رحيق بعيدًا، أغمضت عينيها ملتقطة بعض الأنفاس المتفرقة قائلة بصبر:

ـ الحمد لله على ما أعطى، والحمد لله على ما أخذ. أعترف أن صوتي نعمة ولكن شكلي لا يوحي بأي جمال، من سيقبلني بهذه الملامح..

أسنان متخاصمة طوال الوقت، أنف كبيرة، وعينان شاحباتان أرى بيهما نظرات السخرية، أستمع بنفسي إلى ضحكات البنات ومسامراتهم، يكفي أني وحيدة لولا صداقتكِ لي.

ـ لا تطرقي باب اليأس الآن يكفي حالتي، ابتسمي فالله لم يخلقنا عبثًا.

ـ الله، كلام شيوخ فعلاً إذا كنتِ متعمقة في الدين مؤمنة بالله لمَ لا ترتدين الحجاب يا تمارى؟

ـ لو كان غيرك المتحدث لنهرته، الصلاح لا يقتصر على الحجاب فالكثيرات متدينات برغم أخطائهن، وإيمانهن الضعيف.

ـ لا تقولي مبررات، اعترفي أن الحجاب فرض وأنه ستر لصاحبته، إذا ارتديته سيزيد جمالك ولن يخفيه.

بلعتُ ريقي قبل النطق بالحقيقة فقلتُ:

ـ أعلم أن المحجبة أفضل مني، محتشمة، تفعل ما أمرنا به الله وأني مذنبة ولكن هناك حبال نورانية بيني وبين الله آمل أن يهدني لما يشاء.

ـ وأخيرًا اتفقنا، متأكدة من طهارتك وسلامة قلبك وإلا ما صاحبتني وتحملتِ تدخلاتي.

سحبت يدها مقاطعة:

ـ في الغالب الدكتور مؤمن في القاعة، إذا لم نُسرع لن يدخلنا اليوم أيضًا. ابتسمت رحيق وأسرعت الخطى متمنية اللحاق بالمحاضرة، أما أنا فسرت على أشواك الماضي السحيق نحو المستقبل أمضي بتثاقل كأنك تسحبني نحو الأعمق راغبًا في وأدي..

****

(٣)
هديل

يا له من طقس!

الجو شديد الحرارة لا أقوى على تحمّله، قلبت الملابس رأسًا على عقب فلم أجد شيئًا يُناسبني سوى قميصٍ أبيض شيفون ارتديته على بنطال قماش أسود واسع من الساقين، يُظهر القميص أعلى صدري مغطى "بـــكَت" أسود يحاول لملمة أجزائي الغالية، وضعت "إسكارف" نبيتي اللون على شعري، هذا اللون يمتزج مع حمرة الخدود فيجعلني أبدو أصغر من الثلاثين. العقد الثالث عندما يُكسر بلا زواج تزداد المرأة حساسية وطغيانًا، تتحسس من السن وتتحاشى الاحتفال بأعياد الميلاد وتزداد طغيانًا في أنوثتها وجاذبيتها..

وضعتُ بعض التراجم المطلوبة مني في حقيبتي، قابلتني يمنى في ساحة الشقة كانت تُعيد ترتيب الأثاث المحدود الذي نملكه، قلتُ في نفسي "إنها حقًا مختلفة، هي أجدد فتاة في الشقة وتهتم بالمكان، أما أنا والأخريات يمكن أن نمكث سنين ولا نحرك ساكنًا تُرى لمَ؟"

ألقيتُ عليها التحية ونزلتُ على عجل فقلتُ: "صباح الخير"

هزّت رأسها:

صباح النشاط والسعادة وفقك الله.

كم كانت كلماتها رقيقة، بلسم يشفي القلوب، رطَّبت مسامعي بكلمات بسيطة، أعطتني طاقة إيجابية من لا شيء.

كم تهزمنا كلمة وترفعنا أخرى! لا أقول مد يدك في جيبك وفرّق أموالك، ولكني أقول تعلّم البذل والعطاء بالكلمات، الكلمة الطيبة صدقة، مَن تذوّق سعادة العطاء أبدًا لن يكُف عنها.

خطواتي كالأجراس تدق على الدرج، الحذاء الأسود ذو قدم عالٍ، لا أعلم من صدَّر إلينا ثقافة الكعب العالي؟

موضة مؤلمة جدًا، أمضي ورائها كالعمياء، أستمتع بلحظات قليلة أسير فيها رافعةً أنفي للأعلى متكتكة الخطوات غير آبهة بزملائي في الشركة، ولكن في الحقيقة أنا

أتألم... لا أستطيع أن أبوح بذلك، أرتديه رغمًا عني، لو أُتيحت لي الفرصة لنزعتُه فورًا ووضعته أسفل ذراعي وسِرتُ بخفة ورشاقة حافية القدمين..

الساعة التاسعة والنصف، متأخرة نصف ساعة ولكن لا يهم لن يفشي مجدي بسري، دخلت الشركة كأي موظفة، أتوارى خلف ملابسي، جميعنا يُمثّل ربما دوره وربما صنع افتراضي يحب أن يراه، قلتُ برقة:

- **صباح الخير يا مجدي.**

قال بهدوء رافعًا حاجبيه:

- **صباح التأخير يا آنسة.**
- **إنه لا يُذكر، فقط بضع دقائق.**
- **اهتمي بالوقت، بضع دقائق بالنسبة لكِ أمر هين ولكن بالنسبة للوطن جريمة، إلى متى سنظل نأكل في تكية الدولة، حتى وإن كان العمل استثماري خاص فالبضع دقائق هذه تُقام فيها حروب، وتنفض فيها حكومات، ينعم فيها شعب ويذل فيها آخر، تُبنى فيها عمارات، تحدث تطورات كبيرة في العالم ونحن لا زلنا نأكل ورق المحشي، نملأ أحشاءنا ليلاً وننام حتى بزوغ الشمس، ماذا ننتظر ليفق كل إلى رسالته، هدفه في الحياة، وظيفته، لقمة عيشه، ألن يكفي صراخ الشمس الحارق كل صباح!**

يمكن أن تستيقظي مبكرًا لتأتي في موعدك بدلاً من الخجل وإبداء الأعذار..

قلتُ بتأفف:

- **مجدي إذا سمحت، لستُ حالة تُنفّذ عليها أبحاثك ومنظورك التطويري للبلاد العربية؛ فأنا فردٌ واحد ضعيف مسالم مستكين يمكن أن تؤلف كتابًا تشرح فيه وجهات نظرك أما في الشركة رجاءً لا تُخاطبني كالقشّة التي قضمت ظهر البعير لأني لستُ سبب حروب ولا ثورات أنا هديل إحسان نبوي أرأيت؟ أبسط من ذلك.**

قال متداركًا خطابه المطوّل:

- **آسف، لا تغضبي مني.**

أمسك نظارته بأطراف أنامله، اعتدل في جلسته، توحي لي تصرفاته بأنه رجل من زمن الحب، دومًا ما يقول:

"يجب أن تكون معتدلاً في حضرة الحب، لا مكان للتمايل ولا الخداع."

أتجاهل تلميحاته لا لكوني لا أحبه ولكني أنتظر الأفضل، أود تركه في منطقة وسط إذا جاء أفضل منه تركته بكل أريحية لأني لم أعده بشيء، وإذا لم يأتِ سأتزوج مجدي، تطبيقًا لرؤية قرشانات زمان..

"خُذ من يُحبك ولا تأخذ من تحبه"

في حالة إذا خُيّرت طبعًا، ولكن إذا وجد من يحبك وتحبه فهنيئًا لك.

رتّبتُ مكتبي، وضعتُ الأوراق المترجمة في ملف، أستعد لمراجعة جدول يوميات مديري الموقر، أوشكت على الجلوس ولكن مجدي أوقفني قائلاً بصرخة:

- لا، لا تجلسي. المدير ينتظرك منذ خمس دقائق ولا يعلم أن سيادتك متأخرة..

احتضنتُ الأوراق مسرعة نحو الباب بانفعال:

لمَ لم تقل من البداية يا أحمق؟

من المؤكد هامسة وإلا سمعني وألقى بمحاضرة ثانية تنص على مكارم الأخلاق...

صوت الباب الجرار يوقف حديث أستاذ عصمت وضيفه المجهول، لا ترى منه سوى صحراء رأسه القاحلة بلا شعيرة واحدة تُريح ناظريك، تحاشيته عمدًا كم يربكني الرجل الضخم!

قلتُ بوقار:

- السلام عليكم، هذا جدول أعمالك.

تفضل. وضعتُ الملف أمام المدير متابعةً حديثي من مسافة ست خطوات، كنت سأتوسط المدير والضيف لولا وجود المكتب بين ثلاثتنا. أغلق الملف، قائلاً كمن يغضّ الطرف عن موضوع تافه:

- أعرّفكِ على الأستاذ مسعد أبو الخير، صاحب شركة "خيركم" لمنتجات العطارة ومستحضرات التجميل الطبيعية.

- تشرفنا يا فندم.

أومأ برأسه دون أن ينبس ببنت شفة وكأنه سيقطع من جلده إن نطق، رجال الأعمال ثِقال في كل شيء، الوقت والكلمات والأموال، أكمل حديثه قائلاً:

"يريد مترجمة مؤقتة لحين الانتهاء من صفقة مع شركة أوربية تود استيراد كميات هائلة من منتجاتهم، رشحتك بحكم الصداقة، لفترة وجيزة مع التزامك بشغل الشركة أيضًا، وقتك الإضافي معهم مدفوع الأجر ليس منا طبعًا"

قالها يُمازح الأستاذ مسعد، ابتسم أخيرًا وجبَر بخاطري حيث قال بأريحية:

"لا تقلقي يا آنسة، المسائل المادية ستفاجئك."

انقشعت غيامة الانطباع الأول وحلَّ محلها التفاؤل والبشري، قلتُ مغرّدة "يا أهلاً بالفلوس."

****

أركيدة

الإجازة الصيفية كانت لمساعدة أمي أحيانًا والاستعداد للعام الجديد أحيانًا أخرى، أشتري ثيابًا جديدة، أقرأ روايات، كتبًا تفيد تخصصي، والآن بعد إتمام الجامعة أصبح عامي بأكمله خدمة منزلية، لا وظائف خالية، عقود المعلمات متأخرة، زاد الهم بحمل سلوى خاصةً أن والدتها كبيرة في السن ولا تستطيع تمريضها، طلبت أمي أن أساعدها بحكم أنها زوجة أخي وأم ابنه آسر، وافقتُ على الفور وكيف لا والله يحب أن يكون العبد في عون أخيه، تناسيتُ حِدّة سلوى وتعنّتها الحوار معي، وكأن أحدهم أخبرها أن أخت الزوج عقربة تحرّض حماتكِ عليكِ!

متوارثات خاطئة لن يغفرها حسن تعاملي معها، لستُ مضطرة لإثبات عكس ذلك، المنظور الجيد ينبع من الشخص الجيد العقل دومًا ما يفصل بين الردئ والحسن، سأذهب مُلبّية طلب أمي، أشتري خاطر أخي، الشقة في الدور الخامس ولا يوجد مصعد، أخذتُ نفسًا عميقًا أحاول ملء رئتيّ بالهواء لتسهيل المهمة، أنفاسي تسبق يدي، تتصاعد بقوة. طرقتُ الباب لونه أسود مناسب مع لون العمارة البرتقالي بدرجة كريمية، شهادة حق سلوى امرأة ذكية، صاحبة شخصية قوية، تطلب ما تريد بحرية وفي أي وقت لا تراعي أحدًا، أشعر أن ذلك سبب تسيّدها في بيتها، زوجها مسالم يحاول الانحناء كلما هبّت عاصفة الشقاق، يخشى على ابنه والطفلة القادمة، يحلم بحياة أسريّة منظمة، مكتملة الأطراف، تعلم اعتداله وطيبة قلبه لذا تنال ما تريد بخفة، أما أنا.. أنا! من أنا؟

فتاة مثالية، وزني مثالي، متوسطة الجمال، لا أعرف كيف أتعامل مع الرجال؟

خجولة وإذا اضطررت لأي موقفٍ لا أستطيع التصرف، لا أعرف لمَ وأنا خريجة علم نفس..

المفروض أن أكون أقوى وأجرأ.

أرى الفتيات تشاغل الشباب بعضهن بنظرة عين والأخريات لهن طريقتهن في السير، الكلمات، الابتسامة، وربما في صنع المؤامرات الغرامية للإيقاع بالشاب

المناسب، في ذروة انشغالهن كنت أراقبهم وحسب، لا يصدقني أحد عندما أقول إني لم أقع بالحب أبدًا، ربما مرة واحدة، كان إعجابًا لا يُحسب حبًا إطلاقًا.

لم يُصرّح أحد بمشاعره، كنا نتبادل النظرات فقط، فتحت سلوى الباب بابتسامة، ليس لها مسمى سوى ابتسامة برغم اصفرار مضامينها قائلة:

- أركيدة، أهلاً وسهلاً، لا تؤاخذيني تأخرت عليكِ أنتِ تعلمين الحمل ومعاناته.

استدركت: ولا أقول لك من أين لكِ لأن تعرفي، لا بأس، تفضلي، تفضلي..

تفصلني بنظراتها تطلق ابتسامتها لتتوارى خلفها بعض الشخصيات يمكن أن تنفث في وجهك غازاتها السامة تحت ستار العشم أو المزاح، وددت لو تغلق الباب ونعاود تصوير ذلك المشهد البارد كي أجيبها برد يؤلمها مثلما آلمتني.

كثيرًا ما تمر عليك مواقف حرجة تتمنى لو ترجع الزمن إلى الوراء وكأنه سُجّل على إسطوانة وحدك تعلم مكانها، تحذف هذه الأشخاص الجامدة، هياكل بلا روح، أصنام متحركة، تعلم أني جاوزتُ الثامنة والعشرين بلا زواج، دون أن أشم رائحة رجل حتى..

ومع ذلك أول ما تفوّهت به، حملي ومتاعب حملي، أحادث نفسي بصوت شبه مسموع، أرفع شفتيّ يمينًا ويسارًا أحاول تقليدها، استكملت حديثها قائلة:

- ما أخبارك؟

الحمد لله بخير.

- وما أخبار أمي؟

- اممم. لو كانت أمك لاعتبرتني أختك وحافظتِ على مشاعري.

- ماذا؟

- لا شيء أقصد أنها تبلّغك تحيتها.

- سلمكما الله من كل شر الشقة مقلوبة، التراب يعبئ المكان، لا أستطيع حمل الكراسي وتنظيف السجاد. بدلي ثيابك قبل أن يمضي الوقت ويعود أحمد من عمله. قلت بلهفة:

"أين آسر؟ افتقدته كثيرًا."

آسر، عمتي. احتضنني الصغير بعمق، وكأنه يعتذر بطريقته عن فظاظة والدته، لا بأس سأقوم بواجبي لأجلك يا عزيزي، ولأجل أبيك. الوقت مر سريعًا، طردتُ التراب بكل الوسائل، مسحتُ الزجاج من الداخل والخارج لم يبقَ سوى الحمام أخذت الردهة الضيقة

إلى الحمام آملة أن ينتهي هذا اليوم على خير، ظهري يؤلمني؛ فعلت في يوم كل ما تفعله ربة المنزل في أسبوع..

أمسكت بالمقبض صوت فتح الباب جعل سلوى تُسرع لتقتحمه قبلي معللة:

آسفة، نسيت شيئًا مهمًا سوف آخذه أولاً.

تراجعت خطوتين أفسحت لها المكان:

لا عليكِ المنزل منزلكِ.

عندما أخذته بدأت تلوّح به كمن يحمل علم دولته يتفاخر بوطنيته المسيسة، يتقاضى بهويته راتبه، لونه أحمر لون الحب، أرادت إثارة نقمي عليها، تسعى جاهدة للتفاخر بأشياء يمكن أن تُسلب منها في أي وقت عمياء لا ترى النور، لا المتزوجة مميزة ولا المطلقة معطوبة.

تساءلت لمَ يغفر المجتمع طلاق الرجل ولا يقبل بطلاق الأنثى؟

كلاهما فعل نفس الشيء في السرير، هل كان مثلكم الأعلى راهبًا لا يمارس ما أحلّه الله، أم أن الفرق عندكم هي قطرات الدماء التي سقطت من حواء في لقائها الأول؟ يمكن أن تتعدد علاقات الرجل ومع ذلك تسامحه زوجته بكل استسلام وضعف، تهاون إجباري، شعور قهري، تحتاج المرأة في كل مكان إلى حصنٍ يحميها بعد انهيار زواجها يمكن أن ترغم إحداهن على العيش لمجرد الاحتياج المادي أو الخوف من نظرة المجتمع. "فليذهب المجتمع القاسي إلى الجحيم، وتُشعل في أجسادهم وألسانهم نيران العقاب"

إلى متى سنضطر لتحمّل حماقات غيرنا كل هذه الأفكار تصادمت في عقلي، أشعلت سلوى فتيلة الغضب بداخلي تقف ممسكة بقميصها القصير الذي يحكي قصة ليلتها الدافئة تنتظر ردة فعلي لكني لن أعطها ما تمنت سأدعك بلا رد، نقاط فارغة أعملي عقلكِ جاهدة لتصلي إلى ما عندي ولن تفهمي شعور النقص مع الرضا بالمقسوم.

خرجتُ من الحمام بدّلت ثيابي في لحظات، رافقني آسر إلى الباب سمعت صوته يناديني:

- عمتي، أبي في الطريق إلى البيت لا تذهبي.

قلتُ بشرود: دع أخي في طريقه الذي كُتب له، ودعني أمضي نحو مصيري المجهول..

(٤)
يمنى
الدم الخائن

أحيانًا يُغلق بابٌ في وجهك لتُفتح لك قصور، نعم تلك هي ثقتي بربي. بدأ العام الدراسي ٢٠١٣ ـ ٢٠١٤والمدينة الجامعية ليست جاهزة للتنسيق لا أعلم كيف؟

من البديهي أن يتم التوافق بين الإدارات لتسهيل الأمور على الطلبة ولكن يا عزيزي البديهي في عقل من يفكر فقط!

ضيّعت أول أسبوع ولا أستطيع خسارة الثاني، تحدثت مع أبي حول الموضوع:

ـ أبي سوف أسافر للقاهرة، الدراسة قد بدأت، إن انتظرت المدينة سيفوتني الكثير من المحاضرات.

عقد حاجبيه متمتمًا بكلمات توحي باضطراره على الموافقة:

- لا أطمئن سوى للسكن في المدينة، ولكن المصلحة تحتم قبول البدائل المؤقتة.
- لا تقلق، سوف أنزل في شقة زميلة، استأجرتها لمدة شهر وقبل مُضيّه ستفتح المدينة أبوابها بإذن الله.

استقلت القطار في اليوم التالي، وضعتُ حقائبي أعلى مقعدي، بقت أكثرهم ثقلاً، حقيبة الطعام، الفتيات المغتربات تعلمن جيدًا قيمة ما تأخذه من بصل وأرز ودجاج وغيرها من خيرات منازلهن، تدفع ثمنها أضعافًا في الغربة، لا أعلم لمَ؟

مع وجود فرق ضئيل في السعر، أعتقد أننا نعيش في رغد عندما نكون وسط إخوتنا تحت ظل آبائنا، نأكل بحُرّية ولا نحسب ماذا سنأكل غدًا، في السفر ستعلمين من أين تأكل الكتف..

الدراسة في محافظة غير ما نشأتي فيها بمثابة إلقائك في بحر الحياة، مضطرة لمواكبة التغييرات الطارئة على حياتك، وأنا كُفء لها من طبيعتي أحب الاعتماد على نفسي، لا أرغب بمساعدة الرجال، حتى وإن كنتُ في أمسّ الحاجة إليهم، رفعتُ الحقيبة بقوة ولكنها لم تصل، يتبقى عدة سنتيمترات معرقلة الأمر، أتصبب عرقًا، وضعتها

لأستريح قليلاً ثم أعاود المحاولة، يجب أن أسرع، المحطة التالية يمكن أن يركب أحدهم ويحتاج المقعد، صوت القطار يعلو، تهدأ حركته، نهضتُ مسرعة رفعتها من جديد بلا فائدة.

تتملقني العيون، ينتظرون أن أحادثهم وأعلن استسلامي وطلب المساعدة ولكني لن أفعل، صعدتُ على الكرسي وحاولت، ها قد فعلتها، وأخيرًا انضمّت الحقيبة بجوار أخواتها، الصعود على المقعد كان سهلاً عليّ عكس الهبوط، وضع أحدهم حقيبته أسفل قدمي، ذلّت قدمي بعدما قاربت الوصول، صِحت بصاحبتها:

ـ ألا ترين أني سأضع قدمي؟

قالت بصوت خشن:

- ومن جعلك تقفين على المقعد، على حد علمي إنه للجلوس!

التفتُ إليها، أردت التأكد من هوية هذه المرأة المخنثة، هبت نسمة رطبة في أجواء الصيف المحيطة بنا، أمسكت بطرف الطرحة وضعتها على كتفي، دائمًا ما أفضلها تعلو فستاني متحررة خلف رقبتي، اعتدلتُ إليها فوجدته شابًا طويل القامة نحيف القد، شعره كثيف لو كان على فتاة ما صلح هكذا، عيناه بُنّية واسعة، كأنه سقط في نهرٍ من القهوة الساخنة، تهفو الحرارة منها، تنتشر رائحتها في كل مكان، التقت أعيننا للمرة الأولى، شعاع النظرة جعله يمد يده إلى حقيبته فيرفعها معلنًا أسفه قائلاً بلطف:

- لا تؤاخذيني، كنتُ غليظًا معكِ.

قالها وهو ينفض آثار الغبار :

- أسفك غير مقبول.

ألقى بالحقيبة أرضًا ثم أردف:

- لم أقل إني آسف، فقط عاملتك بإحسان كأنثى برغم أني لا أراها.

- من؟ الأنثى.. ترتكب حماقة أكثر من الأولى.

أكمل بسخرية وأكبر:

ـ أنتِ فتاة متعجرفة، يبدو أن أحدهم ألحق بكِ خذلانًا لا ينسى.

ـ لا شيء مما تقول إنك واهم.

أعلن القطار إقلاعه من المحطة، أجبرني على المكوث معه في نفس المربع ولكنه في المواجهة، يرفع حاجبيه بخفة، مد يده بجرأة ثم قال متماديًا:

ـ اسمي عمرو، موظف حسابات وإدخال معلومات، وأنتِ؟

ـ لا.

ـ لا تكوني سمجة تحدثي، لن أخطفك، أصبحنا في القرن الحادي والعشرين ولا زلتِ متحفظة هكذا!

ـ على أي تقدم تتحدث وأنت فلاح أهلك تعمل بالزراعة وتربية المواشي!

ـ ما قصدك؟

ـ لا يذهب عقلك بعيدًا، فأنا منهم ولي الشرف، كل ما أعنيه أن لنا عادات وتقاليد معروفة لا تتغير بتغيّر الأزمان والتكنولوجيا.

أعاد يده إلى جيبه ثم مسح على جبهته كأنه يُجففها من عرقه المتصبب قائلاً وهو يحرّك شعره:

- صدقتِ.

- اسمي يمنى، أدرس هندسة عامي الرابع.

ابتسم عمرو كمن يبدأ صفحة جديدة ولكنه لم ينسَ القديمة حيث قال:

- ماذا حدث لعاداتكِ الآن؟

- لا شيء، كل ما هنالك أني وجدتك تعترف، والاعتراف بالحق فضيلة، إنه مجرد حديث لن أصافحك قطعًا.

لن أقول انتهى الحديث بيننا لأنه لم يرفع عينيه عني، يغدق عليا بنظرات غريبة لا أعلم مغزها، لا يهم قاربت محطة الجيزة سوف أنزل مع صديقتي في منطقة فيصل، أتى هَم الحقائب من جديد، انشغلتُ في التفكير لحظات وإذا بها تنزل أمام عيني واحدة تلو الأخرى، سحب عمرو الثقيلة، وقال:

ـ دعيني أخرجها لكِ وبعدها أكملي طريقكِ منفردة لن أزعجكِ صدقيني.

لم أجبه، سرتُ خلفه بابتسامة خفيفة تعني موافقة، فحواء اليوم لا تصمت إلا في حالة الرضا على عكس الماضي يمكن أن تصمت خجلاً، وصلنا إلى الشارع العمومي، ترك الحقيبة ثم ابتعد لم يحادثني سوى بعرض أي مساعدة؟

قلتُ بامتنان:

- **أشكرك.**

في الحقيقة نعم أحتاج، ولكنني عاندتُ قدري، أحتاج دعمًا، أخًا يحمل أثقالي، يُشاركني قضاء مهامي الصعبة.. ما فائدة الكلام الآن! ذهب بكل اللطف دون أن يُقحم نفسه في حياتي أو يسألني رقم هاتفي، ربما أعطيته لك..

شدي عضدكِ يا يمنى، أنتِ الآن سندٌ لنفسك. وضعتُ الحقائب بأعجوبة في الميكروباص، جلس جواري رجل منحول الشعر، لا يبقى سوى جوانبه، سألته عن شارع العشرين فأجاب وهو ينظر في وجهي بسُفه: انتظري ريثما نقترب سأنبهك. رفضه قلبي من أول كلمة، أمثاله كثيرون تراهم كل يوم، "كبراشوت" يسقط فوق وجهك، يتفحصني بعمق وما زاد احتدام سخطي عليه وعلى جلسته. يجلس بأريحية وكأنه متكئ في ساحة منزله.. ساقاه تحتاجان إلى كرسي جانبي يحملهما بعد زاوية انفراجهما الحادة، وربما تحتاج إلى ضبط زوايا عن طريق برجل يصل سنه المدبّب إلى عظامه النتنة فيصرخ من الألم ولا نُبالي نُكمل حتى يتعلّم كيف يجلس في حضرة النساء..

تمالكت نفسي لا خوفًا منه ولا من عيونكم الجاحظة ولكني فاقدة شهيتي على العراك، أشعر وكأن عمرو يصلح أن يكون صديقًا بدلاً من التشتت في الغربة، آخر كلمة نطقها:

- **حادثيني يا ابنة بلدي إذا احتجتِ مساعدة.**

كيف سأحادثك يا ذكي ونحن لم نتبادل الهواتف؟

دفعتُ للسائق أجرته، نبهني الرجل للشارع، حمدتُ الله أني وصلت أخيرًا، أرغب في النوم والراحة بحثتُ عن رقم مريم، ردت بعد محاولتين، حتمًا لا تتحاشاني قلت:

- **ألو.**
- **ألو كيف حالك يا مريم؟**
- **الحمد لله بخير. جئت للسكن معك مثل ما اتفقنا على "الفيس بوك"، لا تقلقي بشأن الأجر سأتقاسمه معكم.**

جاء ردها مفاجئًا وصادمًا حيث قالت بحدة تتداعى اللباقة:

- **أعتذر خطيب فطيمة هو صاحب الشقة ويرفض أن يُقيم معنا أحد.**

الحرارة عالية، أقف على الرصيف مفترشة آمالي المنهارة، وحدتي وسط الزحام، فقلتُ بحزن:

- **لمَ لم تخبريني من قبل؟**
- **آسفه، نسيت.**
- **نسيتِ بهذه البساطة!!**

مريم صوت مصطنع ينادي عليها، تتركني بدون رجعة في محافظة غريبة وتغلق الخط، أين أذهب؟

أغلقت الأبواب في وجهي، جلستُ أستريح، فكرتُ مليًا بالأمر لم أجد سوى أمي، حادثتها وجدت لي حلاً مؤقتًا حيث هاتفت ابنة خالتها القاطنة بمنطقة المنيل بعد فترة انقطاع، طلبت منها استقبالي لمدة أسبوع وبعده أنتقل لسكن آخر وتم الأمر، جاء صلاح ابنها حمل عني حقائبي وذهبنا إلى عالمهم الخاص تُسيّره المرأة العجوز وابنتها برغم من وجود ثلاثة ذكور حاملي البطاقات الشخصية..

يعمل صلاح نجارًا، حاول التقرب مني كثيرًا، تارةً يحكي لي عن الفتيات المغرمات به، وتارةً يُهدني عطرًا أهدته له إحداهن، لا أعلم كيف فرّط به؟

الهدية لا تُهدى. من الواضح أنه آلة جامدة بلا مشاعر، لن ألصق شخصيته بقلة حظه من العلم ولكنها طبائع جُبلت على الأخذ وعدم رد الشيء، المفروض أن نرفض ما ليس لنا، لكنه يرفضها كحبيبة ويقبل هداياها في نفس الوقت يُناقض نفسه..

مرت ثلاثة أيام، أذهب إلى الجامعة يوميًا، الأربعاء نهاية جدول محاضراتي عدتُ إلى البيت مفعمة بالأمل والنشاط، قبل الدكتور بحثي حول تطوير وضع الصامت في الهواتف الجوالة، قد يبدو الأمر بسيطًا ولكني أراه إضافة في عالم التطور وتحقيق الرفاهية للإنسان. عملتُ على برنامج يحول وضع الصامت إلى وضع الناطق..

"يكون الهاتف على هذا الوضع لا تسمع له صوتًا، فقط يخبرك باسم المتصل، أحمد يتصل بك، والدتك تتصل بك وهكذا، مرة واحدة ثم يغلق الهاتف فمه، أحيانًا نريد أن ننعم ببعض الراحة فنجعله في وضع الصامت فنفقد مكالمات هامة بسكوته غير المميز، بهذا البرنامج ستلحق بمهامك دون تأخير، ولن تُسرع إلى الهاتف بمجرد سماع نغمته، ستعرف مدى أهمية الاتصال وأنت في موقعك لتُقرر أأُجيب أم لا يستحق أن أخطو إليه، إضافة إلى تنبيه المتصل بأن الهاتف في وضع الصامت لذا لن يتمكن صاحبه من الرد

الآن خاصية تُزيل عنك عبء التبرير وخلق الحجج حول انشغالك أو رفضك الكلام في الوقت الحالي"

بعفوية بحتة أخبرت المرأة العجوز عن مشروعي، وهبتها كل ما في جعبتي بسذاجة، نسيتُ أمر ابنتها وفاء لا تستطيع الحصول على شهادتها حتى الآن، تحمل ثلاث مواد ولا زالت تنتظر العام القادم لتمتحنهم، دارت أعينها في حنكة شديدة، قرأتها دون الحديث تقول لنفسها: "بنت الأرياف متفوقة وابنة المدينة ترسب".

تتعجب وتُقارن، هممت بالاستئذان، أردت تغيير ملابسي

فقالت بثقة:

- **ما رأيك بصلاح؟**
- **من أي اتجاه؟**
- **كعريس.**
- **رجل محترم تتمناه أي فتاة في مستواه الفكري.**

تحوّلت خالتي فجأة رافعة صوتها لدرجة تجمّع الأسرة حولنا، قالت كمن يقدّم وصلة ردح عنيفة:

- **عن أي مستوى تتحدثين يا ربيبة الحظائر، أتعتقدين أنكِ شيء؟ أنتِ فتاة تافهة، نسيتِ يدي الممدودة لمساعدتكِ، تريدين قضمها؟**

انهالت عليّ بالسباب والطعنات ولم أجبها، تصرفاتها غير مقنعة،

قلتُ بدهشة يعتصرها الغضب:

- **خالتي ماذا حدث لكل ذلك؟**
- **لا تقولي خالتي..**

قالتها بصياح، شعرتُ وكأني خادمة لديهم ولستُ ابنة بنت خالتها، أعرف أنها قرابة بعيدة ولكن بيننا دم، يجب أن يُحترم، تُحافظ على علاقتها بأمي، دخلت وفاء الغرفة، تركت الخلاف قائمًا ولم تهدئ من روع والدتها الظالمة، اعتقدت أنها مستسلمة ولكنها أعمق من ذلك بكثير، ذهبت لتلقي بحقائبي خارج غرفتها، كمن ينظف ثيابه من وسخ هرة... جاءها الوقت المناسب أخيرًا كي تظهر بواطنها النفسية الرديئة، صُدمت حقًا ولا أدري كيف يُمكن أن تكون محاطًا بهذا الكَم من الحقد والحسد وأنت

غافل لا تشعر، تحوّل البيت بأكمله مئة وثمانين درجة مشاعرهم اللطيفة انتحرت دون إبداء الأسباب، إلى هذا الحد يوجد أعداء النجاح، يكرهون أنفسهم إذا أصابك خير، احترس كل الاحتراس من الوجوه المقنّعة، إنهم أكثر قسوة من ضرب السياط، ممكن أن تجلد بحق ولا تخان من دمك..

أين أذهب؟ لم أرتّب لنفسي سكن آخر، معاملتهم الطيبة في البداية أوهمتني بأني منهم ضيفة مرغوب بها، فجأة أصبحت طريدة، قضيت آخر ليلة في بيتهم وحيدة، مكسورة ومظلومة، وضعتُ حقائبي في باحة طويلة نصفها الأول حجرة معيشة بها "الأنتريه" والتلفاز والنصف الثاني سرير وحمام للغرباء، وضعوني هناك، تفصلنا الستارة، أسمع ضحكاتهم يتساقط الفشار من فرط المتعة بينما تنهمر دموعي بحرقة، لم أصدّق ما أراه أبدًا ولن أنساه ما حييت...

وكأنك تعيش مع آكلي قلوب البشر، لم يكونوا بشرًا، بل وحوشًا آدمية، ليتهم آكلي اللحوم لكان أهون من كسر القلوب، تريد ابنتها الأفضل لا بأس ولكن ليس على حسابي. من يعتقد أن الإنقاص من قدر الناس يرفعه فهو مخطئ إنما ارتفاعك بذاتك هو الصواب، نمِّ قدراتك ولا تعِش حياتك باحثًا عن ثغرات البقيّة، لتثبت لنفسك قصورهم، تبني نجاحك على أنقاض أحلامهم. بكيتُ في صمت، لا داعي ليسمعني أحد أن دموعي المتساقطة من أعماقي ما هي إلا دموع تماسيح بالنسبة للسيناريو الخاص بهم..

أغلقت الحقيبة استعدادًا لرحلتي الصباحية، وجدتُ السحابة الجانبية مفتوحة، لأضع أغراضي هنا، مددتُ يدي لأجد ورقة بيضاء بها مجموعة أرقام، حتمًا هو، تنفّست الصعداء بعدما وجدتك، اليد الصادقة التي مُدّت إلي، لست من دمي ولكني أطمئن إليك أكثر منهم، تمنّيت لو تأتي إلى الآن، خذني إليك مهما كنت لن تكون مثلهم..

ترددت كثيرًا قبل محادثتك، ليس أمامي غيرك، الساعة الثانية عشر منتصف الليل أطلبك حثيثًا، جاء صوتك برقة عراف:

- **يمنى!**
- **لم أخبرك باسمي.**
- **أعلم لكني كنتُ أنتظرك، تمنيتُ أن تكوني وكنتِ.**
- **كلماتك تطمئنني**
- **تحدثي كثيرا كي اكتفي منك**

عندما شعرتُ بطيبتك انهمرتُ في البكاء، قصصتُ عليك كل ما حدث، ربتّ على كتفي بقوة، لم تتركني فريسة لجبروتهم.

كالقمر في ليلة كاحلة أنرت طريقي، زهرة نبتت في بيداء شبابي. غدًا سأترك لكم قصركم المزعوم، كبرياءكم الكاذب، افتراءاتكم، ولكني لن أنساها، سأعود يومًا ما لأشردكم أنتم وذويكم...

سرعان ما أشرقت الشمس، حزمت أغراضي وغادرت المنزل، صوت وفاء يهمس: انتظري، اعتقدت لوهلة أنها ستعتذر، تضمني مودّعة، لكنها لم تفعل قالت واضعة يدها متوسطة خصرها:

- **نسيتِ حذاءك النتن بالداخل، عليكِ التخلص منه بنفسك.**

ألقته وأغلقت الباب، سرتُ نحوه أقضم شفتيّ من الغيظ ولكن ما الفائدة! الغريب يتيم بلا أهله سنده الأول والأخير، أمضي نحو المجهول بخطوات ثابتة، مهما كان لن يكون أسوأ من خالتي وابنتها الصلفة..

وصلتُ لآخر الشارع، تمر وسائل النقل العام من هنا، انتظرتُ عمرو شاردة، كأنه كُتب على وجهي الانتظار، متى سينتظرني أحدهم، أحاول لملمة ما بقي من كرامتي، لا يستطيع الفرد أن يحيا بلا كرامة وعزة نفس.

ظهر فارسي المنتظر كالرمح الخارق يعرف وجهته، كالبرق يشق ظلام القدر، يُلقي السلام بحاجبيه من بعيد، أعتقد أنه مُيّز بطولهما وكثافة شعره، جمع حاجبيه برفق كالغاضب ثم رفعهم ليتفرقا مع ابتسامته الصافية، أتعجب من ناموس الحب، قدرته على التغيير، بمجرد وصوله تبدّلت الأرض وكأن السماء غير السماء ارتسمت فيها عيناه النقية، قابلته بابتسامة، فهي سلاح قوي لا يُمكن مقاومته، مدّ يده على استحياء وقال بلهفة:

- **كيف حالك؟**
- **حالي لا يسُر .**
- **أخبريني بكل ما حدث.**

قصصتُ عليه مهاترات الأمس علّه يُضمّد شيئًا من جراحي. قال بانفعال:

- **حمقى بعيدون كل البعد عن الإنسانية ولكن من الواضح أن نواياهم نشأت من غيرة ودونية. لا تُحزني نفسك كثيرًا هم عاجزون عن تقبّل نجاحك واستقلالك.**
- **الحمد لله على كل حال لا يهم. صفحة سوداء مزقتها وانتهيت.**
- **حسنًا.**

أمسك بالحقيبة وقال وهو يشير إلى سائق الميكروباص:

- **لعله خير، تعالي معي.**

مكثتُ في مكاني للحظات قائلة:

- **لن أتحرّك قبل أن أعرف إلى أين؟**
- **حتمًا ليس لشقتي.. أسكن بمفردي فيها، لا شيء جديد سوى ذهابي للعمل كل يوم ومع ذلك لا يصح، حادثتُ صديقة قديمة وأعطتني عنوان بيت للطالبات به غرفة شاغرة، على ما أذكر صاحبته تُدعى ناهد.**

سرتُ خلفه مطمئنة، يعرف ما له وما عليه، شاب بشهامته ندر وجوده في هذا الزمن، جلس إلى جوار النافذة، حمل الحقيبة على ساقيه ولم يحمّلني ولو جزء منها، إنها لي كيف يحملها كاملة بمفرده بل ويحملني معنويًا أيضًا!

****

(٥)
لمياء

الخميس يوم النصف دوام، يقتطع بعض الموظفين عملهم لمجرد أن غدًا الجمعة إجازة رسمية..

ترى هذا المشهد أحيانًا عندما تدفعك الحياة لختم ورقة أو تقديم أوراق لبعض المصالح، لا يهم فأنا أيضًا أتعامل بنفس المنطق، يوم الخميس جدوله بسيط لا يشجعني على الذهاب يمكن أن أنقل المحاضرات من زميلاتي، استيقظت متأخرة على عادتي، لستُ من النشيطات اللاتي يأكلن الخبز وهو سخن في السابعة ويشربن قهوتهن في تعمّق على أنغام فيروز العذبة..

الهدوء يعم الشقة، خرجت أبحث عنهن لا أحد في الصالة، دلفت إلى غرفة هديل قابلني قميصها الأصفر، فتاة بمعنى الكلمة، أحيانًا تُثير فضولي ويكون على لساني السؤال فأخجل من نفسي، أود معرفة لمن تتزين كل مساء؟ تربيت على الالتزام وإخفاء مفاتن المرأة ولا تظهر إلا لشخصٍ واحد يُدعى الزوج، أما هي فتتجمل بخفة ورشاقة كأنها ستدخل تحديًا بأفخاذها العارية، أحبها كإنسانة لا أنكر ولكن طبعها غريب تحتاج إلى بعض الاحتشام، حتى وإن كنا فتيات مثل بعض يجب أن تحتفظ لنفسها ببعض الخصوصية كمقدمة صدرها الكبير وساقيها الطويلتين، يكفي أن تظهر ركبتها أكثر من ذلك هو انتهاك لحرياتنا نحن وليست هي!

ما دامت تريد التفريط الزائد في نفسها لا شأن لنا بتفاصيلها المحرّمة شرعًا..

قدماي تتسلل أكثر لأرى محتويات غرفتها.

تضع فازة من الزهور الطبيعية على طاولة صغيرة بجوار مخدعها، تبدو رومانسية، ربما حالمة، ويمكن أن تكون متجددة تعيش كما تتمنى لا كما تكون، الحاسوب مفتوح على صفحتها ترددتُ كثيرًا قبل الاقتراب منه، الهاتف والحاسوب يعدان ملكية خاصة لا يجوز تصفحهما بلا إذن، كاقتحامك الحمام في نظري، رفعتُ يدي قبل ارتكاب هذا الخطأ..

"بتنسيني حياتي وتفكرني ليلاتي"

شريف، أسرعت إلى الهاتف، تخصيص النغمات من الأشياء المبهجة حقًا، تجعلك تُرتّب أولوياتك، فتخرج مَن تستثنه من زحام الأرقام فتتلقفه سريعًا قبل أن يصمت الرنين، فتحت الخط فقال مبادرًا ببهجة:

- **مساء الخير .**

قلتُ باضطراب ملحوظ:

- **مساء.. كم الساعة؟**

الساعة الثالثة عصرًا ضاع اليوم دون فائدة، لم أذهب إلى الجامعة ولم أذاكر لامتحان الشهر، لا بأس، يدرس المرأ بنفسيته لا بعدد الساعات.

- **صدقت، يمكن أن تُنهي المنهج في ساعاتٍ معدودة إذا كنت نشيطًا وخالي البال.**
- **إذًا، أنا في انتظارك...**
- **حقًا! أين؟**
- **أسفل السكن.**

تقدّمت بخطوات حذرة، لا أدري أأتأكد أم أرفض مجيئه، إنه هو شريف الوسيم، يهتم بمظهره جدًا، يضع "البلوفر" الأسود فوق قميصٍ أبيض يظهر ياقته فقط، شعره مصفف بعناية، سواده ذو لمعة تتحد مع النهار تُعطي بريقًا مدويًا، أشار إليّ بيده اليسرى يضع بها ساعته البُنّية، كنتُ منهمكة في تفحّصه ونسيت أني استيقظتُ للتو وما أدراك ما معنى استيقاظ فتاة عزباء من النوم، لامستُ أطراف شعري أرجوه أن يثبت قليلاً، نزلتُ بوجهي فجأة دون أن ألوّح له قائلة بارتباك:

- **لا أريد الخروج، أجّلها ليومٍ آخر.**

أجاب بإصرار:

- **لن أذهب، انزلي بهدوء بدلاً من افتعال المشاكل..**

قلت بتحدٍ:

- **ماذا ستفعل إذا لم ألبِّ طلبك؟**

- هكذا..

بدأ بالصياح:

- يا لمياااا.
- اصمت يا مجنون لا أريد فضائح.. عشر دقائق، سأقابلك على ناصية الشارع.

أغلقتُ الخط قبل أن يستطرد باستظراف أحمق لا أريده سقطت في الحيرة المعتادة لجميع الفتيات ماذا سأرتدي؟

شعرتُ للحظة أن ثيابي بأكملها أصبحت بالية لا تُناسب خروجة مع البرنس الوسيم الذي ينتظرني، قلَّبتُ دولابي الصغير المكوّن من درفة واحدة بها ثلاثة أرفف، العلوية لملابس الشتاء والسفلية لملابس البيت والداخلية وفي المنتصف شماعات ملابس الخروج، أخرجتها كلها باحثة عن ألوان تنسجم مع الأسود الذي يتزين به، وجدتها بلوزة زرقاء طويلة وضعتُ فوقها "بلوروه" أسود وبنطال أسود، جمّلت وجهي ببعض اللمسات الأنثوية، بدأتها بتنظيف بشرتي بالماء ثم وضعتُ كريمًا مرطبًا لطيفًا على بشرتي، يجعلها رطبة وناعمة، لم أتمادَ كثيرًا في تزيين عينيّ، يكفي ما بهما من لهفة للقائك.

صببتُ جُل اهتمامي على شفتيّ، رسمتُ معالمها بتحديد أحمر اللون ثم ظلّلتها بزبدة كاكاو حمراء، لا أحب التوغّل في الأمور، أشعر براحة أكثر عندما أكون وسطية، تائهة بين الفتيات بالشارع ولستُ منفردة بألوان صارخة مُلفتة مثيرة للاهتمام، لن أرتدي الكعب، شريف لا يملك سيارة قطعًا سيضطرني إلى السير مسافات طويلة بحجة التنزه أو الوصول لأقرب موقف سيارات...

أنهيتُ تجهيز نفسي، أخذت حقيبتي البيضاء ثم نزلت الدرج في دقائق، رأيته ممسكًا بالهاتف ولا أعلم ماذا يفعل؟

يُغريك ظهره على التمحيص بتفاصيله، أعتقد أن شريف ليس رياضيًا فجسده ممتلئ قليلاً من الخلف، قررتُ سؤاله عن عدم ممارسته للرياضة فقلتُ مباشرة:

- :
- شريف لمَ لا تُمارس الرياضة؟

قال مباغتًا:

-ولمَ تسألي باهتمام قبل إلقاء السلام؟

- لا تُجب بسؤال، أجبني أولاً..

ـ كنت في الرابعة عشر من عمري صدمتني سيارة، قمتُ وكأن لم يحدث شيئًا وبعد لحظات سقطت على الأرض لا أشعر بساقي اليمنى، بعد الفحص والأشعة أعلمني الطبيب بوجود تمزّق حاد في الرباط الصليبي، حذرني من ممارسة الرياضات العنيفة وحمل الأثقال ولكنه بفضل الله لم يمنعني من المشي.

ختم قصته بابتسامة هادئة تجس النبض، يرى مدى تأثري بألمه، حينها ذهب عقلي لفتى أحلامي ذي العضلات المفتولة مع شريف لا يمكن أن يكنه أبدًا..

أعلم أنه منحنى فكري أناني اتجهت إليه ولم أُبدِ تعاطفي معه ولكنه حقي، لا يجزي أبدًا أن تبدأ علاقتك العاطفية بالتنازلات، التنازلات يجب أن تأتي متأخرة بعد أن تقع الفأس في الرأس ولا يكون لك حقّ التراجع، إنما الآن لا شيء يُجبرنا على الاستمرار، تنفّست بعمق، رفعتُ عينيّ بعد مدة التفكير فوجدتُ عيناه تتلألأ مع أشعة الشمس، تشدني نحو روحه بلا هوادة، تدعوني أقترب ولا أهرب، لم يتفوه بكلمة ولكنه مدّ يده، أخذت وقتي ثم تلاقت أيدينا. ما حكاه لا دخل له فيه، حادث وجميعنا عرضة له في أي وقت، كنا نسير والشمس تغيب، وكأنها تسكن قلوبنا، تغرب من بيننا، المسافة الضيقة التي تفصلنا كانت منتهى الغربة تحتاج إلى مزيدٍ من القرب، قطع دقائق الصمت بحديث فلسفي حيث قال: "أعشق غروب الشمس، أراها تجمع خيوطها كالأم عندما تحتضن صغارها وتنام، أراها فرصة يهبها النهار لأهل الأرض، بضع دقائق تؤهلك للاعتذار عن أخطائك في وضح اليوم، فترة هدوء وزهد فيما مضى وفيما هو آتٍ"

أحبه حب الطبيعيات لأنه من صنع الرحمن ولكني لا أستمتع به أبدًا، أعشق الشروق، الصفحة البيضاء، الفرصة الحقيقية بالنسبة لي، أن تستيقظ لتجد نفسك بصحة وعافية ومجموعة أمنيات تسعى لتحقيقها، أتمنى لو تشرق الشمس ذات صباح ونحن معًا على شاطئ البحر، كم سيصبح المشهد رومانسيًا!

لا أريد أن نكون وقت الغروب ويحل علينا ظلام الليل..

قلت تاركةً يده "لماذا تنتظر الظلام؟ ما تريد فعله يجب أن يكون في النهار وإلا سيكون شيئًا خاطئًا تخجل منه."

" قال ململمًا ما اختلفنا فيه "تتزوجيني؟" كلمة لطالما سمعناها ولكن عندما تُقال لك لن تفهميها، صداها كقرع الطبول بصخب، هبوب الرياح المفاجئة، جحظت عيناي في عينيه ولم أنطق فأعادها بشكلٍ أوضح، أمسك يدي بكلتا يديه، ضمّها بشدة وقال: "أريدك أن تصبحي لي، زوجتي وأم أولادي."

ولكني لم أكمل الجامعة. - لا يهم نكملها معًا. اعترضت التسرع

وقلت: "لا، أفضّل أن تأخذ كل مرحلة وقتها، أخشى أن أتعثّر في حياتي بسبب هذا القرار، الزواج مسؤولية كبيرة"

قال: "لا بأس نقرأ فاتحة في الدراسة، وتضعي دبلتي في يدكِ وبعد التخرج يكون الزفاف"

- اتفقنا.

- ألف مبارك يا عزيزتي.

قلتُ: أعتقد المباركة بعد موافقة الأهل، قال: سيوافقون ما دمنا نتمسك ببعض فلن يستثنينا أحد عن رغبتنا.. ازداد قربي منه لدرجة كبيرة، تحدّثنا في كل ما يمكن قوله، الامتحانات على الأبواب وبعدها سأكون حرم الأستاذ شريف نور الدين، ستبدأ مرحلة جديدة من حياتنا، أتذكر عندما سألني:

"ماذا تفعلين بعد الجامعة؟"

لم أكن أدري بما يُفكّر، هل يشجّع عمل المرأة أم يُحاول الاطمئنان على أن يمتلّكني فحسب، يبحث عن طاولة مميزة، ديكور جديد يُضيفه لمنزله المميز..

فقلتُ قاطعة كل الطرق ممسكة بالحل الأوسط:

"لستُ أنا من تعمل دوام كامل، أشعر بالضيق عندما يمتلكني أحد لأعمل لعدة ساعات متواصلة، فالوقت هو العمر لن أهبه للحصول على المال، المال هو مسؤوليتك أما أنا فسأتابع مشروعي الخاص، زراعة الزهور النادرة في مصر وبيعها كشتلات للمواطنين، أتمنى تزيين كل المنازل بالأزهار، الحمراء والبيضاء، الزرقاء والبنفسجية، زهور الجوري، الأركيد، التيوليب، النرجس الياسمين.

الزراعة والنباتات عالمي الآخر، أود صُنع ركني الهادئ ليحتضنني عندما تضيق بي الحياة، يحتويني عندما تلفظني الشفاه بألفاظ لا ترحم، يحبني دون سواي. وافقتُ يومها على مشروعي، تحمّست لفكرة العزلة وعلمك بتفاصيلي المحددة، أردت السيطرة ونلتها قررت دعمي من مالك عندما تكمل صفقة الخشب المتجهة إلى محافظتي البحيرة وكفر الشيخ، إنه تعاقد ضخم يحتاج إلى عام للإتمام على أكمل وجه، وبعده ستصبح من أكبر رجال الموردين للخشب في مصر.

****

تمارى

اعتادت الأيام على الاستمرار، لن يُبقيني غيابك سجينة غرفتي، ولكنها الذكري تحل عليك ضيفًا مفاجئًا تجعلك تنسحب، تنعزل، تذهب بعيدًا لتنهشك على انفراد.. قررتُ الخروج من المحاضرة بحجة الشعور ببعض الإعياء، قالت رحيق هامسة:

- انتظري سوف أستأذن وأخرج معكِ.

-لا، أكملي الشرح.

أخذ المحاضرة من شخص تثق به أكثر أمانًا من غريب، فبعض الشخصيات الضعيفة تعتقد أنها تحجز لنفسها مكانًا مميزًا إذا أخفت المعلومة ولكنه ليس حقيقيًا، التلاميذ في الفصل يلقنون نفس الدرس والنتيجة تتباين، يخرج الترتيب الأول والثاني إلى آخره، الفكرة كلها في ثقتك بنفسك، إيمانك بأن العلم والمال يزيدان بالصدقة، فكما أن زكاة المال الإنفاق كذلك العلم زكاته البذل والعطاء، تجد أوائل الدفعة هم الأسمى نفسًا لا الشخصيات الحريصة التي تُخفي المعلومات وتسجيلات المحاضرات، انسحبت من الباب العلوي المدرج، أكملت طريقي في ردهة الحرم الجامعي، سمي حرم على ما أعتقد لأنه مكان مقدس مثله مثل دور العبادة، تأخذني قدماي إلى البوابة الرئيسية، انتهي اليوم بالنسبة إلى عقلي المغلق الذي يُوصد أبوابه بغتة وكأنه معطوب، فجأة أشعر بالسأم فأنسحب، الشغف أمتع شعور يمكن أن تُكمل لأجله، إذا فقدت شغفك تراجع مهما يكن، فما تفعله بعده يصبح بلا روح، هيكل مفرّغ من الآمال والأمنيات، يقف الأمن على باب الجامعة، الباب الإلكتروني للدخول والعادي للخروج، يخشون من الداخل ولا يخشى المجتمع من الخارج برغم ما يحمله من أفكار جديدة قد تُغيّر منحنى حياته، لا يهتم المجتمع لأفكارك ما دام يحوّطها عقلك، عندما تتسلل أسور جسدك وتعبر أسماع الناس حينها يمكن أن يأبه بك أحدهم..

أقبلت سيدة الشارع.. صاحبة فرش الكتب، لقّبها بعض النشطاء بسيدة الشارع لكونها تبيع المعرفة في الشارع، تأكل وتشرب، تقرأ، فكما يقولون:

"طباخ السم يتذوقه، وباع المسك يصبه عدو عطره"

وقفت تائهة قليلاً، مترددة تنتظر أم تعود، لكنها جمدت، تملقته بعيون واسعة، كمن تشرع زوايا قلبها لرؤيته، يقترب على استحياء، يلتفت حوله بسرعة، مدّت يدها فصافحها على ما أظن، المسافة بعيدة، ولم يمكثا طويلاً، عبرت البوابة متأملة في رؤيتهما أوضح فوجدت عاصي زميلي في الكلية يُدخل يده في جيبه، ربما لم تكن مصافحة وكانت تُعطيه شيئًا...

قلتُ بلطف: "صباح الخير يا عاصي"

رد بابتسامة خافتة: "أهلاً تمارى."

- ماذا تفعل مع هذه السيدة؟ قال باستنكار مما زاد فضولي:

"أي سيدة؟" أشرتُ إليها وهي مدبرة لم تصل إلى عرشها من الكتب، فرك أذنه برفق، غاصت عيناه في الرمال ولم يُجبني، تصرفاته توحي بعلاقة مخجلة بينهما فقلتُ بحسن نية: "أهي قريبتك؟"

نفى خاطفًا الكلمات من فمي: "لا، لا أعرفها."

- وإن كنت تعرفها، إنها سيدة مكافحة تعمل بجد، تأكل بالحلال. أطال النظر بعيدًا عني فألقيتُ بآخر احتمال قائلة:

"ترافقها، أليس كذلك؟" قلتها بغمزة أربكته أكثر، تحب النساء الفقيرات، ربما هو ذوقك لا بأس.. أحادثه وهو يرفض أن يحاورني، ينطلق بحجة شراء كتب من المنفذ..

بعد ثلاثة أشهر يفكر عاصي بشراء الكتب، أيام معدودة يمتحن الطلبة. وضعتُ يدي في وسطي أفكر بحرية، أمر هذا الفتى غامض، اسمه عاصي وربما هو كذلك، ابتسمت احتفاءً بنكبته، لستُ وحدي من تُعاني في هذه الحياة، الشخص الوحيد الذي أحببته تركني ذات شتاء ولم يعد، تعددت الفصول ولم يأتِ، أنتظره كل مساء، أتفحص الهاتف آلاف المرات، أبحث عنه على مواقع التواصل الاجتماعي فلا أثر لعينيه البستانية، ولا شفتاه الكرمزية، لا أجد سوى بعض المكالمات الفائتة من أبي عبر حساب ماسينجر. سافر إلى الكويت وأنا صغيرة، يزورنا بين الحين والآخر ولكن علاقتي به ليست كأي فتاة مع والدها، دور الرجل فارغ في حياتي، فتحت أمي الباب دون استئذان، تشاجرنا سويًا كالمعتاد رغبتها في أن تصبح الأب والأم في ذات الوقت جعلها مشتتة لا تعرف متى تشد ومتى ترخي.. قلتُ بحدة:

"لما لم تطرقي الباب أولاً؟"

أجابت بفضول: "وماذا كنتِ تفعلين تخشين رؤيته؟"

- إنها خصوصية يا أمي.

- لا خصوصية بين الأم وابنتها، مهما فعلتِ لن تكبري على من وضعتكِ قطعة لحم حمراء، ضعيفة، تصرخ مستنجدة بذراعي من وحشة العالم الجديد. تمنيتُ يوم وُلدتِ أن تظلي متعلقة برقبتي إلى الأبد، كنتُ لكِ الأمان في صغركِ فكوني لي الأمان الآن. شعرت أنها في أزمة، تختنق الدموع في عينيها، تخليت عن اللاب، لا داعي لإهدار الوقت في أمور منتهية لكي لا نفقد الحاضر، أسرعت إلى حضنها، هي الدنيا عندما تأتيك بخبر سار، هي لحظة بلوغ المنى، حضنها يتحدث بلا كلمات، يجمع أفكارك بعد شتات، يقوّي أضلاعك حد الثبات في مواجهة المعضلات، إنها حنان يوصف بها الكلمات ولا تصفه أبدًا عبارات، فقط أستسلم له..

كل إنسان لديه كنز لو علم مفتاحه لوجد سعادته الغائبة، لا يوجد مخلوق على وجه البسيطة يمتلك كل شيء، كاذب يريد إيلامك من يتفوه بأن سعادته كاملة؛ أنا مثلاً أمتلك أمي، المال، الجمال، هم ثروتي ولكني أتناساهم وأبحث عن الحب، أبي، حمدي أعاد لي حضن أمي توازني النفسي بعدما كاد ينفرط عقده، بعد مغادرتها أمسكت بالهاتف باحثة عن رحيق، طلبتها مكالمة فيديو، أريد معرفة ماذا تفعل دون كذب، لا أعلم لمَ أتوقع الكذب ممن حولي دائمًا؟

فتحت المكالمة وذهبت بعيدًا حيث درس الزومبا، بدأت الحديث قائلة: "ماذا تفعل كابتن رحيق؟"

نسيت اليوم الخميس موعد تدريب رياضة الزومبا نعم، بقي عشر دقائق وانتهى، ريهام انخفضي بظهرك أكثر، انحني قدر استطاعتك ثم دوري بوسطك نصف دائرة هكذا..

تصفّق رحيق مع صوت الموسيقى الصاخب تُعلن انتهاء الدرس قائلة: "تمام، إلى اليوم التقدم بطيء ولكن لا بأس، تمرن في المنزل قبل المجئ." فكت رابطة خصرها الممشوق من فوق بدلتها السوداء، أشبه "بسلوبيت كت" قائلة بحماس:

"عندي لكِ مفاجئة."

قلت باهتمام: ما هي؟

- **سمعتُ عن مسابقة للمواهب الغنائية الجديدة أفكر بالاشتراك، صحيح ملامحي لا توحي بالفوز ولكن صوتي جيد وجسدي رياضي ألن يكفي ذلك؟**

سرحت قليلاً في طموح رحيق، شعرت بالحنق عليها، تدرس بالجامعة وتحصل على علامات مرتفعة، تعيش وسط أبويها، تمتلك موهبة الغناء، تعمل مدربة في جيم، استوقفتني قائلة:

- **تمارى، أين ذهبتِ؟**
- **معكِ، أتخيّلك تُغنين أمام جمهورك يا فنانة..**
- **حقًا! أنتِ صديقة عمري.**
- **وأنتِ أيضًا.**

أغلقت الخط على أمل اللقاء غدًا لنسجل في المسابقة، سأرتدي أثمن ما لديّ في خزانتي، سأريك موهبتي، لا تحسبي أن التميز حليفك يكفي أنفك الكبيرة لتحطم كل أحلامك الوردية.. أتخبّط بغرابة ولا أدري لحالتي تفسيرًا بداخلي طاقة غدر رهيبة أنني حانقة على الجميع لا أحب أحدًا، أود سحقهم جميعًا..

لا- لا، إنني فتاة مميزة وجميلة، أنظر لقوامي في المرآة ثم أنتشي بملابسي ومتعلقاتي لا تُضاهيني فتاة.

(٦)
سم في العسل

عادت رحيق إلى منزلها مرتدية ملابسها التقليدية، بنطال جينز تعلوه بلوزة بيضاء وجاكيت أزرق، كوتشي أسود مع طرحة قصيرة لا تبدي شيئًا من صدرها، ملابسها فضفاضة بعض الشيء، تنتعل أمنيات كثيرة، تتنفس بعمق داعية الله أن يكون معها، قائلة برجاء:

-يا أللـه ساعدني، لطالما كنت معي لم تتركني أبدًا، أشعر بروحك وبرعايتك لي، وفقني غدًا.. إنه حلم حياتي.

صعدت الدرج بتؤدة، الشقة في منطقة شعبية، تذكّرت للحظة منزل تمارى، كم هو راقٍ ومرتب، موقعه هادئ، لا تستيقظ على صوت العراك في الشارع، صوت بائع _الروبابكيا _ المتجول، ولا تنام ليلاً على صوت شيش، ودوش، أسماء الدومينو على القهوة.. عادت لرشدها سريعًا قائلة:

"كلٌ مُيسّر لما خُلق له، حتمًا أنا مميزة بشيء لا تملكه هي."

طرقت الباب كفرقة حسب الله الشهيرة، تنادي:

" أمي يا أمي يأمي، يا ست الكل، قلبك أبيض زي الفل."

فتحت والدتها الباب حاملة الخبز بيد وبالأخرة ملعقة غرف الطعام:

أهلاً يا شقية.. بنت حلال، الطعام لا ينتظر أحدًا ولكنه دومًا ما ينتظرك.

ابتسمت لمجاملة أمها البسيطة متمتمة وهي تدخل:

"سأبدّل ملابسي وأعود فورًا."

الطعام شهي، الجائع لا يُفرّق بين ما يأكله أهو خروف مشوي أم طاجن بامية قرديحية بدهن الماعز، التهمت الطعام مع أخواتها الثلاثة ووالدها يتوسّط السفرة المتواضعة، في منتصف الصالة تجد السفرة والأنتريه النبيتي المدهّب دليل الأصالة والغنى بالنسبة للطبقة المتوسطة..

جاء اليوم المنتظر رحيق مبتسمة، قلبها مطمئن برغم قلة نصيبها من الجمال، تسير كالوصيفة إلى جِواري، أرتدي فستان بنفسجي قصير يظهر مفاتني الأنثوية التي لا تقاوم، كثير الثنايات حول الصدر تنتهي عند الوسط، يتسع كلما انخفضت نحو الساق العارية، هناك خلخال صغير في القدم اليسرى لكنه بلا صوت. شعري القصير مرفوع

فوق جبهتي بدبوس بنفسجي أيضًا، يُحدِث تناغمًا جماليًا عامًا، أبدو كأميرة إحدى الأساطير، ترتدي رحيق بنطالٍ بني، بلوزة صفراء بكرافت بنية، حتى في هذا اليوم لم تستطع أن تظهر كأنثى، الجمال الداخلي لا يكفي وحده لتثبتي أنوثتك، ذوقك وطلتك يقع عليهم عبء كبير في إظهار ذلك بدأ الحوار بيننا بانتقاص منها:

"هذا أجمل ما عندك؟"

جحظت عينا رحيق الطبيعية الخالية من مساحيق التجميل لم تتوقع صراحتي المحرجة، استدركت الحديث قائلة بتماسك:

"أعني أنه يجب أن تظهري بأبهى صورة كي تفوزي بالمسابقة"

بلعت ريقها أخيرًا، تفهمت تصحيحي المزيّف لما أعنيه فقالت:

"الشكل لا يهم، إنها مسابقة غناء وليست مسابقة رقص."

رمقتني بطرف عينيها كأنها ترمي دفة اللوم عليّ، لم يسعنا الوقت وإلا ظهر كل ما بداخلي تجاهها، بدا من تلميحاتها أنها تضيق بجمالي وتهتم بتفاصيلي، يمكن أن ألاعبها غير يوم لأستفزها، أحب الشجار كثيرًا وأن يعلو صوت الناس والتفوه بما يكنونه... دخلنا مكتب المنتج بعدما طلبت مني رحيق كتابة اسمها في التقديم:

لا أعلم ما دفعني لكتابة اسمي بدلاً منها! عندما سألني الموظف:

- ما اسم المتقدمة؟

قلت بدون ترتيب:

- تمارى محسن.

- تفضلي.. أعطاني ورقة قائلاً.

- دورك القادم..

- أشكرك..

رأيت نظرة تقدير لم أرها من قبل، تمنيتُ لو أغني فعلاً ولكنها ستبقى أمنية، صوتي بشع لا يُحتمل، دلفنا سويًا حيث قابلنا المهندس المعروف فاروق عز، لم يرفع عينيه عني، لاحظت رحيق اهتمامه فقالت ممهدة لنفسها:

- أتمنى تقدر الموهبة يا أستاذ فاروق ولا تجعل الشكل عائقًا بيننا..

أجابها دون الالتفات إليها بينما عيناه عالقة بشفتيّ:

- إنها حسناء كما يقول الكتاب، يزيدها الجمال قوة.

- تمارى حقًا جميلة، المهم أن تسمعني.

نظر إليها باشمئزاز كمن التفت ليذب عن وجهه ذبابة سمجة تُصدر ضجيجًا يزعجه، قال وهو يشير بيده اليسرى:

"اكتمل عدد المرشحين للمسابقة، تقدّمي الموسم القادم إذا كنتِ مُصرّة، آنسة تمارى محسن إن شاء الله أنتِ معنا."

"أنا! كيف ولم تسمعني؟"

- لا يهم، جمالك ساحر حتمًا صوتك أجمل، لديّ موعد حاليًا يُمكن أن نلتقي مرة ثانية."

- أكيد.

- اتركي رقمك في الاستعلامات وهم سيحادثونك عندما أعود..

غارت عينا رحيق بالبكاء هربت مسرعة من المكتب، لم تنتظر ليكمل حديثه، ذهبت غير آبهة لما يقول، أرادت استنشاق بعض الهواء بدلاً من اختناقها بأنفاس هذا الرجل الأعمى، ليس أعمى البصر ولكنه أعمى البصيرة، طلب أن أسير أمامه ولكني رفضت، تحججت بأن الفن رسالة سامية لا عرض للأزياء والأجساد، استأذنته برزانة:

"أشكرك يا أستاذ فاروق، إن شاء الله سأرسل لحضرتك فيديو به أغنية بصوتي."

تمتم قليلاً ثم وافق هامسًا:

- أكثري من الحركة والاستعراض، تصرفي ك _موديل _ وإذا نال إعجاب لجنة التحكيم سوف تدخلي مجال الغناء فورًا، وتبدأ مرحلة عرض كلمات الأغاني عليك..

صافحته برقة ثم غادرت المكتب تركته معبأ بعطري الخاص، يستمع إلى دقات خطاي على الدرج، لحقتُ برحيق في الخارج، حادثتها، طلبت منها الانتظار، اندفعت بخطوات غير محسوبة على حافة الرصيف، عندما سمعت صوتي توقفت، أسندت ظهرها على جذع شجرة قديمة، احتضنتها وسط ظلام الليل شجعتها على الحديث بجرأة:

- **كيف عرف المنتج باسمك؟**
- **بالصدفة العابرة، سجلت اسمي مساعدتك فقط لا غير.**

ضحكة ساخرة:

- **من منا سيصبح مساعد الآخر؟**

رمتني بسهام الكلمات وظلت عيناها ثابتة تنتظر الجواب فقلت:

- **حتمًا أنا مساعدتكِ، كيف سيحدث العكس بصوتي هذا؟**

بدأت بالغناء.. الليل الليل، اه وحرقة الآهاااات. ابتسمت رحيق وهي تمسح دموعها المتساقطة، أوقفتني بإشارة فلم أستجب لولا أنها وضعت يدها على فمي ما توقفت قالت محذرة:

"اصمتي أعرف صوتكِ جيدًا."

- **المهم عرض السيد فاروق عليّ بدء التسجيل فور إرسال فيديو بصوتي ليعرضه على اللجنة، فتح بند الماديات لم يحدها برقم، تخيلي!**

حاولت فتح أفق جديدة أمام رحيق، تارة بانتشار صوتها لتسمعه الدنيا وتارةً بالمال الذي تحتاجه لتحسين مستوى معيشتهم، أنتظر الحل من فمها، لا أريد أن تقول يومًا أجبرتها على شيء توغّلت عيناها في ظلام الطرقات، اعتدلت في وقفتها، أمسكت بطرف حجابها ثم قالت:

- **ما رأيك لو أغنّي بصوتي وتظهري بوجهك؟**
- **مستحيل طبعًا أقبل..**

أتظاهر بالرفض وبداخلي سعادة لا تُوصف، أخيرًا فهمت هذه الغبية أن الشهرة لا تُناسبها... وجهها منفر لن يتقبلها أحد..

اقتربت مني فجأة، قطعت شرودي عندما وضعت يدها على كتفي قائلة بتشجيع:

"أحبك يا صديقة عمري، وجودك معي يسرني حتى ولو لم أظهر للناس أبدًا، نجاحك سوف يكون نجاحًا مشتركًا"

لحظات من الصمت قبل أن نطلب سيارة تقلنا، عدد أشجار الشارع قاربت على المئة وعشرين شجرة، لم تفتني واحدة، تتبعها كسر رتابة الصمت والشرود بيننا، لا ندري نهاية هذا الطريق الذي دخلناه مقامرة؛ كلانا يعلم أن الكذبة شنيعة لن يغفرها الجمهور لو علمها، نتفهّم جيدًا أن الواقع شيء وما يحدث في الأفلام شيئًا آخر..

****

(٧)

هديل

إنه الثلاثاء التاريخي أو الخازوقي كما ينعته البعض حيث يتشاءم منه الكثير من الناس التي عرفتها، أما أنا فأراه يومًا مميزًا، يجلب لي السعادة، علمت نتيجة الثانوية يوم الثلاثاء، حصلت على علامة مرتفعة دخلت بفضلها كلية اللغات والترجمة، قابلت الأستاذ عصمت منتصف الأسبوع وعُيّنت مساعدته على الفور، حياتي عملية بشكلٍ ممل، أعلم ذلك دون أن يقولها أحد أحلامي كبيرة، لحافي صغير، أحتاج إلى مزيد من القماش، ليغطيني...

لا أقبل الأمثال الشعبية التي تُقيّد الطموح وتقمع الأحلام، بدلاً من قولهم:

"على قدر غطائك مدّ قدميك يمكن أن يقولوا، انسج غطاءك المناسب ثم تغطى."

بمنتهى البساطة، لا أؤمن بالمستحيل، أجمع المال بحرص، أضم كل ورقة على مثيلتها، أرتّبهم جيدًا ثم أضعهم في حسابي، قارب على الخمسين ألف جنيهًا ولا تعلم أمي شيء عنها، بعد وفاة أبي شعرتُ بفقدان الثقة، تخلخلت مشاعري تجاه الغد، أتوقع غدر الأيام في أي لحظة، وددتُ لو أغتني في أسرع وقت بأي طريقة، أسهلها الزواج من رجلٍ ثري، أقطع شوطًا كبيرًا أمام طموحي، سأصبح سيدة مجتمع، آكل في أفخم المطاعم، أسافر لباريس، أشتري العطور وفي طريقي أمر بإيطاليا لتناول طبق _باستا_ مُعد خصيصًا لي، قبل وصولي لديهم علم بالموعد، في ذكرى زواجنا يهديني خاتم ألماظ، سولتير، وربما أفخم...

السائق ينتظرني خلف الباب الزجاجي، أخرج بسخط أحرّك إصبعي فينطلق أمامي مهرولاً يفتح باب السيارة يقول ورأسه مطأطئة أمامي:

"تفضّلي سيدتي.."

بإيماءة للأعلى أحيّيه بحاجبي ثم ننطلق، الطرقات ممهدة لأسطول السيارات التي تُرافقني، طاقم الحراسة من أكفأ الضباط، أرى الطائرة تُقلع من روما سئمت الترحال يجب أن أعود إلى المحروسة برغم جمال رحلاتي إلا أنها موطني الأصلي، بمثابة أم لا تملك حق قطيعتها، تصبح عائقًا أمام الله، سوف تُحاسب بشدة، تُصاب بالخذلان،

ستشعر بالضياع ولو أخذتك أجمل مدن الدنيا بالأحضان، ملابسي الفاخرة تتصدر مانشتات الأخبار في العالم، الليدي هديل زوجة أغنى رجل في العالم وصلت مصر، أرفع يدي ملوّحة أمام الكاميرات، أبتسم...

-هديل.

-أشكركم، أشكركم.

-هديل، أين ذهبتِ؟

رفعتُ رأسي متأففة، نظرتُ حولي فوجدتُ مجدي يهزني برفق، الموظفين منشغلين في أعمالهم، يبدو أنني أحلم حلمي المعتاد، قلتُ بسأم:

- لمَ توقظني يا مجدي؟ أعاد الأستاذ عصمت من استراحة الغداء؟

- لا لكنه هاتفك، انظري أحدهم يطلبك بإصرار..

اعتدلتُ على كرسي المكتب، نظرتُ في المرآة، مسحتُ آثار الكحل الزائد بسبب غفوتي، رنّ الهاتف من جديد، أخرجته من الحقيبة رقم مجهول تحدثت بفضول متفحصة الصوت:

- ألو.

- ألو، كيف حالك يا آنسة هديل؟

- بخير الحمد لله، من تكون؟

- معكِ المهندس مسعد أبو الخير.

وقفتُ في مكاني، تركتُ المكتب لمجدي وتحرّكت بردهة الشركة قائلةً بوقار:

- تحت أمرك يا فندم.

- الساعة السابعة سيأتي الوفد الأوروبي، المكان فندق راع المطل على الأهرامات.. رجاءً لا تتأخري.

- كيف أدخل؟

- لا تقلقي، سوف أترك اسمكِ في الاستعلامات.

- تمام.

أغلقتُ الهاتف وكُلي حماس، دخلتُ المكتب إذا برائحة الشاي الأخضر تقابلني، فعلها مجدي برومانسيته التقليدية، يعرف أني أحبه وأستمتع به ولكن لا وقت لدي، حملت الحقيبة قائلة ببهجة:

"لدي موعد طارئ، أراك غدًا."

- انتظري، دعينا نحتسي الشاي معًا، اللحظة التي تمضي لن تعود، يجب أن نقتنص وقتًا لأنفسنا.

دفعتني طريقته لإطالة النظر في ملابسه، قميصه البسيط سماوي اللون، بنطاله جينز أسود، شعره مصفف بفرشة بلاستيكية أراها في درج مكتبه، رجلٍ شرقي تقليدي أقل ما يُقال عنه أنه عادي لا يُناسبني، حقًا لا أتخيّل حياته شقة ضيقة مكوّنة من غرفتين تجمعنا والكثير من الأطفال يصرخون حولي.. قطعًا لا.. أجبته على مهل:

"ربما فيما بعد."

رأيتُ الحزن في عينيه، لا يستطيع إخفاء مشاعره، انقلبت ملامحه كسماء غيّرت وجهتها الصيفية وقرّرت إغراقنا بالأمطار، كلاسيكيته لا تثير اهتمامي إطلاقًا، يُمكن أن تُثير شفقتي ليس أكثر:

"لا تحزن، تناول الكوبين هما لك."

أجابني بعيون حالمة:

"لا، سأتناول كوبكِ فقط."

- كما تحب، لا فرق.

- بلى يوجد فرق، ما كان لك يحمل اسمك، لمساتك، تصورات للوقت القليل الذي حلمت أن نقضيه سويًا.

غادرته وهو يروي خيالاته الرخيصة، التي لا تُطعم فمًا، كنت منشغلة بأمر فستان الليلة، لا أملك فستان سهرة يليق بوفد أوروبي وفندق ضخم مثل هذا، لوّحت لسيارة أجرة:

- وسط البلد إذا سمحت.

-تفضلي.

المحلات هنا ضخمة وما أكثر الفساتين بها، قبل الوصول أخرجت حذائي الأرضي وبدّلته مع الكعب لا أستطيع التسوّق هكذا.. عندها لن أذهب للموعد بل سأنام طريحة الفراش...

لونها أسود يُناسب ملابسي، بنطال أزرق وبلوزة برتقالية اللون مع طرحة بدرجة هادئة تجمع بين اللونين، حاسبتُ السائق ودلفتُ لأول محل قابلني الألوان لا تجذبني، أرى تصميمات كثيرة، الضيق الذي يأخذ شكل الجسم والمنفوش، القصير والطويل، يجب أن أحدد ما أريده قبل الدخول...

قضيت ساعة أدور حول _البترينات_ ولا جديد، وقعت عيناي على فستانٍ طويل، كم إلا ربع يُظهر الكف وجزء صغير من الذراع، لا بأس سأغطيه بإسورتي الذهبية إلى متى سأحتفظ بها داخل علبتها؟

لونه أسود شيفون، بطانته فضية لامعة كنجمة ساطعة في ظلام الليل، عندما يجتمع بياض البشرة مع الأسود يُضفي سحرًا لا يُقاوَم، يجعل صاحبته كقطعة جاتوه شهية تود الاقتراب منها، شمّ رائحتها، تقبيلها لتغوص شفتاك في نعومتها الكريمية.. رأيتني به.. مهم جدًا أن يناديك الثوب وإلا، لا تقترب.

قطعت باحة المحل متقدمة نحو العاملة:

- كم سعر هذا الفستان، الأسود؟

- أي فستان؟

اختلط الأمر عليها منطقة العرض معبّأة بالفساتين السوداء مندمجة مع لون آخر، لديهم أسود في أحمر وبرتقالي وزيتي وبنفسجي، طلبت منها الفضي فقالت بعد النظر في الجهاز، يبدو أن المحل مسعّر إلكترونيًا:

"ألفان جنيه."

سعره صدمة كبيرة، فكّرت بالخروج ولكنه يعجبني، سألوم نفسي إذا تركته، أقنعت عقلي بحجة لن أشتري فستان سهرة كل يوم..

ابتعته بالفعل ثم عُدت أدراجي إلى الغرفة، أشم رائحة طعام لذيذ، وإن لم يكن فأنا جائعة، طرقتُ الباب ولم أدخل مفتاحي، دائمًا أفضّل الطرق السهلة، بالأحرى أبحث عن مساعدة الآخرين لي يبهجني شعور أنني مخدومة ومهمة بالنسبة لكل المحيطين...

فتحت يمنى الساكنة الجديدة بالغرفة:

ـ مساء الخير.
ـمساء التأخير... قالتها بابتسامة. لم تمكث سوى عدة أيام وبدأت في ملاحظة مواعيدي. قدّمت مبرراتي قائلة:

ـ ذهبتُ للمحلات في وسط البلد الطرق مزدحمة جدًا، بالإضافة لصعوبة الاختيار والمعروضات متنوعة وجميلة..
فتحتُ الفستان لأريها إياه ولكنها أسرعت إلى المطبخ صائحة:
- لم أضع الفاصولياء في الطماطم، ستحترق.
ـلا بأس، سأبدّل ملابسي الآن.
ـحسنًا، أراه بعد الغداء.

تناولنا الطعام سريعًا، أودّ إنجاز كل شيء لأستعد للمقابلة، بداخلي شعور قوي بأنه هناك، أتمنى أن أجده ويجدني من أول نظرة، فتى أحلامي المنتظر، أميري الوسيم. قامت يمنى باتجاه المطبخ، تُعيد ترتيبه بعد معركة إعداد الطعام.. الوقوف بالمطبخ أمر مستحيل بالنسبة لي، أُفضّل الأكل ولا أقوى على إهدار وقتي وطاقتي فيه.
أدفع ضعف الفتيات ولا أطبخ أو أشاركهم في أعمال التنظيف وبرغم غنى يمنى _علي حد قولها_ إلا أنها تعمل بيدها ولا تدفع مثلي، كلما سألتها لمَ لا تدفعي من مالك ولا تهيني نفسك؟ تقول:
ـ لا أشعر بالإهانة وأنا أطهو بالعكس يُخيّل لي أني فنانة عالمية أمسك فرشتي ومجموعة ألوان كل طبخة لها لوحتها الخاصة، أبدع بمكوناتها وطريقتها، منها ما يصح مذاقه ومنها ما أسكبه دون أن يراه أحد، الطبخ نفسية... يحتاج إلى بالٍ طويل ونفس مستقرة... فيلسوفة في المعدة إلى جانب تفوّقها في دراستها، تركتها ترسم، أعني تُنظّف المطبخ ودلفتُ إلى حجرتي، الفستان نائم بخصره على السرير متدلٍ بحذر نحو الأرض، يُناديني بشدة، قررتُ أن أستحم لا زال أمامي وقت الساعة الخامسة والنصف، أخذت الفوطة والبشكير وذهبت لاستراحة قصيرة، تجرّدت من ثياب البيت، قميص شقة قطن عليه قطة صفراء أعلى الصدر، أسفله "بَدي" حمالة رفيعة ثم الداخلي، تلاعبت بهم نشان ولم يسقط في سبت الغسيل سوى حمالة الصدر، ربما لثقل ما تحمله من إسفنج...
قبل أن يغمرني الماء وضعت سائل الشعر، غسلته بعمق، فتحت الماء لينساب على جسدي بهدوء، تساءلت:

"هل الهدوء والراحة التي أشعر بها الآن موجود في الطبيعة أم في عقلي؟"

فاليوم مثل كل يوم، ومع ذلك أتفاءل وأتعامل مع البديهيات كمن يراها لأول مرة...

وضعت إصبعي على مفتاح الماء، يكفي ثرثرة فوق رأسي، جفّفتُ جسدي مسرعة ثم لففته بالبشكير الأبيض، لملمتُ شعري بفوطة صغيرة ثم خرجتُ من الحمام، وقبل أن تسألني إحداهن لمَ تخرجي هكذا! ناديت بصوت مرتفع:

- يا فتيات لا أحد ينظر، أنا بلا ثياب.

هرولتُ إلى حجرتي وانتهى الأمر...

أقبل وعانقني يا عزيزي، قلتها لفستاني الغالي، ارتديته فوق حمالة الصدر وقميص أبيض يكسر سطوة الأسود، تجمّلت بمساحيق عالية الجودة، كريم أساس مناسب لبشرتي.

أصبحت الفتيات اليوم كالمقاول يبني عمارات فيضع الأساس أسمنت أما نحن فنضعه كريمات ومرطبات وغسول وبودرة، ثم نكمل كل حجرة لها تشطيب خاص العين أولاً وضعت الكحل، ثم رسمت الأيلاينر تلاه الماسكرا ثم الآي شادو، بربكم أليس هذا كثير عليّ كما أنه مهدار للوقت...

أكملت لا مجال إليّ بمواكبة التطورات بعض الرجال يعشقون الخداع، يحبون الوجوه المزينة أقصد المزيّفة، أمسكت بفرشة

الهاي لايتر وضعته على عظمتي الخد، لمسة بسيطة فوق الجبهة والثانية أسفل الذقن، سمعتُ كثيرًا عن كيفية وضع المكياج ولا زلتُ أمارس هوايتي بحُرّية، لا قانون عندي فالأدوات ملكي والوجه وجهي..

فتحتُ تطبيق الهاتف، طلبت سيارة تقلني إلى الفندق، وصلتُ في السابعة تمامًا، أنا والوقت صديقان لم يخونني أبدًا، إذا كان لديّ موعد باكر أستيقظ قبل المنبه بلحظات، لا حاجة لإجباري، أنا إنسانة إذًا أنا قادرة على أي شيء أضعه في رأسي، سمعتُ آراءً كثيرة من الرجال حول النساء ولكني لا أعترف بها، لا مجال لقوتكم إذا أظهرتمونا ناقصات عقل، يكفي أقاصيص الماضي ليعرف كل منا مقامه عندكم كمثال ملكات مصر، كيف تدير المرأة الرجل إذا أرادت...

أفسحوا الطريق بلا مضايقات.. احترم أختك بلا تدخلات قهرية بقراراتها، لا تعطِ لنفسك الحق في أشياء ثم تحرمها منها..

كل ساقٍ سيُسقى بما سقى..

نحتاج لتعديل بعض المفاهيم الخاطئة، تصحيح لرؤى المجتمع، تربية الفتاة بطريقة مماثلة للولد لا لأجلهما ولكن لأجل الأجيال القادمة، البنت هي أم المستقبل تنفذ دون وعي ما نشأت عليه، تدفعها أمها نحو الهاوية كما تربت فتدفع بأبنائها وتُجبرهم أن يعيشوا نفس الحياة، بلا سعادة وانسجام أسري تُصبح ضيفة تنتظر لحظة المغادرة بأي شكل ومع أول طارق لبابها..

نفس التفرقة، إلى الآن لا أجد مسمى لشاب يجلس ثم يُنادي على أخته من المطبخ أو الغسيل أو غرفتها ثم يطلب منها أن يشرب... بأي قصد يأمرها، ألا يستحي من بلادته وقلة حيائه أشبه بعجلٍ مُقيّد ينتظر الطعام، الرجل المثقف هو الرجل الحسّاس، اللماح، يعلم متى يطلب وكيف يطلبه.

لا أرفض خدمة الأخت لأخياها ولكن بالذوق والتقدير لا بالأمر والإجبار، شعرة فاصلة بينهما وعندها سيرتقي المجتمع درجة عندما يدخل الأخ بلطف لا بضرب القفا كما يحدث...

طريقة الطلب، ماذا سيحدث إذا تأدّب معها؟

لن يحدث شيء سوى محبة تزيد، طيب خاطر يجعلها تطير وتُلبّي ما يُريد.. الشاب الذي يعمل يأمر أخته، يرتفع صوته في البيت، لمَ؟

على من يجري بحنجرته هذه؟

حتمًا لا يطعمهم لكي يتحملوا تقلباته وإن كان مسؤولاً عنهم حقًا فالأحرى أن يُشبعهم احترام واحتواء قبل الماديات.. طريقة الصراخ تجعل المنزل مشدودًا دائمًا في توترٍ وخلافٍ ينتظر كلمة ليشتعل فورًا كالنيران في كومة قش، تذكّرت أخي مرون.

طريقته الفجّة في التعامل، صراخه المتواصل إذا تأخّرت قليلاً، ظلّ فترة عزوبيته رجل البيت وعندما تزوّج سافر إلى الخارج ليكوّن مستقبله الأسري، تزوجت أمي أيضًا، أزورها من الحين للآخر، بعد تفرّقنا تعبتُ فترة ولكنها لم تطُل، بنيتُ لي حياتي الخاصة ومستقبلي، لن أسمح لطفولتي المشوهة أن تسلبني ما بقي من عمري، يجب أن أُعيد ترتيب أفكاري وأذهب للموعد في هدوء مثلما كنت، لا داعي لتذكّر عُقدك الآن يا دودي هانم...

وقفتُ أمام الاستعلامات وقبل السؤال قال الموظف:

- آنسة هديل؟

- نعم.
- تفضلي، مسعد بيه في انتظارك.

ساحة الفندق واسعة، مليئة بالحقائب المؤجلة، من حضر للتو ومن هو مغادر، الفنادق أكبر كذبة في التاريخ...

أكثر مكان خائن لا يفي لقاطنيه، ينسى سريعًا لحظات الفرح، الحزن، النجاح، الفشل التي عاشها أصحابه، بمجرّد خروجهم يلفظهم دون وداع كعاهرة تُلقي برفيقها خارج حجرتها.

عندما أصبح سيدة مجتمع لن آمن لفندق أبدًا.. سأغادره قبل أن يلفظني عنوة، يجب أن يكون لي موطن في كل مكان أودّ زيارته وأتردد عليه.. المصيف له شاليه معين، حياة مستقلة، مكان ينتظرني كلما أغيب، سئمت الوداع والنسيان، جميعهم رحلوا وتركوني وما زالوا يسكنونني.. ليتني بنيان بلا روح تحب، وتتألم!

- هديل.

قالها ملوّحًا بيده من الطابق الثاني، بدا وكأنه ينتظر شخصًا هامًا، حتمًا لستُ أنا..

صعدتُ الدرج ممسكة بطرف الفستان الطويل، أخشى أن أنقلب على وجهي وأصبح تسلاية الحضور، قابلني مقتصر المسافة، كلما اقترب كلما مَحى من رأسي فكرة الخوف من الرجل الضخم، ظهرت ملامحه مرسومة في ليلة قمرية، أهداها لبسمته القدر، بذته رمادية اللون، لم أستشف منها معلومة واحدة، كم يملك هذا اللون من الحِدّة والغموض ما لا يملكه لونًا غيره، يضيف سحر الأناقة ورفعة الأمراء قميص سماوي برابطة عنق فضيّة وكأننا على موعدٍ غرامي لا موعد عمل. مدّ يده ليدعمني في خطواتي الضيّقة، التقطها دون تردد، وضعتُ يدي في ذراعه ثم ألقينا التحية على الحضور، عرفني عليهم قائلاً بحفاوة:

- أستاذ يحيى صديقي، الوفد الأجنبي يعتذر ولكن بعث المتحدث الرسمي ليه أستاذ عبد الله.

خطفتني كلمة يعتذر، شعرتُ أنه لا داعي لوجودي المبالغ به، فقلتُ له بصوت هادئ:

- إذًا لا داعي لوجودي بينكما.
- لا تقولي ذلك.

رد يحيى..

- أهلاً وسهلاً بكِ، مجنونٌ من الذي يرفض رفقة امرأة حسناء مثلك.

ابتسمتُ خجلة ثم أجبته..

- من ذوقك، مجاملة لطيفة من حضرتك.

يمكن أن أستأذن، ونؤجل العمل لموعدٍ آخر. ربط مسعد على يدي برفقٍ وقال بهمس:

- انتظري وجودك ضروري.

تحدّثنا سويًا حول سير العمل، الصفقة موجودة ولكنه يحتاج إلى بعض الوقت لتعبئة المكونات العطرية وصناعة بعض التراكيب، وافق المتحدث ولكنهما لم يقولا تفاصيل زمنية واضحة، استأذن المتحدث للانصراف بينما تركنا يحيى ليحتسي بعض الكُحول، نظرتُ إلى مسعد فوجدته متيم النظرات، لا يرمش بعينيه حتى خُيّل لي أنه مرهق لوهلة، يتعمّد تفحّص جسدي أسفل الفستان، هممتُ بالرحيل ولكنه قال مباغتًا:

"تتزوجيني يا هديل؟"

هكذا ببساطة نطقها اقتحمني بشراسة وأنفاسه تلفحني بوَلَه، لم يفاجئني عرضه بل فسّر أمورًا كثيرة كانت مُربكة بالنسبة لي، تبادله الابتسامة مع مديري وسط الحديث لم يطمئنني ولكني تغاضيتُ بحكم مراكزهما، كنتُ أنتظر الرجل الثري وعندما أتى توجّست خِيفة منه.. انقبض قلبي لدقائق ثم أكمل ليهدّئ من روع الموقف فقال بوضوح:

- من الآخر أنا رجلٌ مستقيم ولا أعرف طريق اللف والدوران، اعذريني، رأيتكِ أكثر من مرة في مكتب عصمت، أعجبتُ بكِ كثيرًا، ثم..

قاطعته بنبرة معترضة:

- ثم اختلقت حوار العمل وحاجتك لمترجمة حتى نلتقي!

- بالضبط، قُلت إنها فرصة تعرفينني عن قُرب.

- واضح أنك شخصية طموحة ولا تتخلّى عن رغباتك بيُسر.

فغر فاه قليلاً ثم تمتم:

- لا أريد ردًا الآن، فكّري ثم أجيبيني هاتفيًا، وأريدك أن تتأكدي أحتاجك للعمل فعلاً وليست كذبة، إنها فقط حجّة.

ابتسمتُ ردًا على صراحته، قلتُ ممسكة بطرف ثوبي الطويل:

- تسمح لي أن أستأذن؟

- تعدينني بأن تُفكّري!

رمقته بنظرة أخيرة تبعتها إيماءة برأسي ثم غادرت، تركت يحيى يُسرع بفضولٍ نحو الطاولة، تحدثا بصوتٍ خافت لم أسمعه، خمّنتُ أنني محوّرة من نظراتهما المتبادلة عليّ..

قال يحيى لمسعد بعد خروج هديل:

- عرفت أنك مطلق وعندك ابن؟

- لا، الوقت لا يسمح، خشيتُ أن يُعيق قرارها..

- أنت مجنون، لمَ لمْ تُصارحها؟ لو عرفت بمفردها لن توافق وستصبح كاذبًا في نظرها.

- دع التشاؤم وقُل لي ما رأيك بها، ألا تستحق التخطيط؟

- من ناحية الشكل فهي جميلة، ولكن عقلها واعٍ وليست سهلة كما تعتقد.

- إذا كان الزواج ما تريده سأتزوجها، فليأخذ كل منا ما يُريده..

انتهى حوار الشباب بضحكات عالية مرافق لطرقات بالأيدي تُعلن المؤامرة على هديل الجامحة..

(٨)

اكذب ولكن..
أركيدة

لا شيء يُضاهي وجعك، تعتقد أنك أكثر إنسان تعِس، تُعاني بشدة من احتياجٍ ما، نقصٍ تُريد إكماله، أصابع موجهة تُشير إليك، تتظاهر بالقوة والثبات، تمضي غير مكترثٍ بما يجري، تبتسم بسخرية من نمطية الحياة، ديمومة التمسّك بالمظاهر والتقاليد، تعلم أنك تُجاريهم ويعلمون أنك لستَ بخير...

أنظر للأمهات حولي أراهم يتعنّتن، يصرخن في أطفالهن بشدة، يعانين الضغط والمجهود الكبير الذي بذلنه في الحمل والولادة وتربية الصغار، أجدهن يطلبن الرحمة والقليل من راحة البال، حياتهن ليست مثالية كما أعتقد...

تستيقظ مُبكّرة، تُغيّر حافضات، وتحضّر الحليب بعيون ذابلة تذهب لتنام بعد رحلتها فلا يكف صغيرها عن البكاء، ترى هل هذا الثمن يُمكن أن تدفعه المرأة بسهولة، من عمرها، راحتها وصحتها..

إذا خُيّرت بين الشيء وعدمه انظري للجانب المشرق بالنسبة لك إذا كنتِ زوجة فاغتنمي الوقت، استمتعي بزواجك، رائحة رجلك، ابتساماته، غمزاته، لمساته، كل شيء، بما فيه صراخه...

وإذا لم تتزوجي فاغتنمي الوقت، انطلقي حيث الاسترخاء والرياضة، مارسي هواياتكِ بكثرة، ارقصي لتتجدد طاقتك، ازرعي النباتات، اذهبي ولو لمرة واحدة للكوافير، قُصّي شعرك، اصبغيه، افعلي ما تحبينه أنتِ لا ما يُريده منكِ رجل.. رتّبي غرفتكِ بمزاجٍ رائق قبل مرور الوقت وفقدان كل هذه التفاصيل.

انعمي بما وهبه لك الله، كم من عطايا تُهملها أملاً فيما لا نعرف عقباه! العلاقات تتبدّل تمامًا قبل الزوج عن بعد الزواج، يد أمك لن تقبليها متى أردتِ، رائحة عطر أبيكِ لن تعبئ المنزل فجر يوم العيد كما تعودتِ، نقاشات إخوتك المعتادة ليلاً لن تسمعيها متى شئتِ، أنفاس أخوكِ المطمئنة ستفتقدين حمايتهم أينما ذهبتِ..

غرفتكِ المبعثرة ستشتاقين إليها.. صدقيني كل تعلّق سيزول مع الوقت، الأيام يا عزيزتي بارعة في اقتلاع الذكريات الجميلة، التأقلم نعمة وقد يكون نقمة..

نواسي أنفسنا ونقبل بأنه خير، نترك كل شيء ونمضي إلى مستقبل مجهول مع شخصٍ لا أعرفه، مجرد خاطب أخبرني أبي بالأمس أن هناك عريسًا، عليّ الاستعداد لأنول إعجابه، إنه أمرٌ في غاية الصعوبة على فتاة اليوم برغم تقليديته وإيمان الجميع به، يعتقدون أنه الطريق الصحيح لبناء الأسرة ولكني أعتقد أن الزواج يحتاج إلى حبٍ و تفاهم، تجاذب روحان يشتاقان إلى بعضهما، عينان تراشق بالنظرات قلوب أصحابها، جسدان بينهما رابط خفي يجذبهما شعور مغناطيسي، يجعلهما دائمًا في حالة ثورة وغليان، وربما عدم اتزان، يريدان الالتصاق التام مثلما يفعل قطبا المغناطيس، تمنّيت أن أحب في الجامعة ولم أوفق والآن ماذا؟

ألن أجد من يجعلني قديسته وكعبته، وجهته وقلعته، سكينته وسُكنته؟ روحي الهائمة من سيرويها من روحه؟ لا أعتقد أن الرجل القابع بالخارج هذا سيفهمني..

- أركيدة.

تناديني أمي من خلف الباب، لم تدخل تعتقد أني أتجهز للمقابلة. قلتُ بتريّث:

"تفضّلي."

قالت بعينين واسعتين أصفى من العسل، وأطهر ما في الكون:

ـ ما زلتِ تلعبين بالأوراق! انهضي حالاً وبدّلي ثيابكِ.

قلتُ بسخرية متعمّدة:

- دعيني أخرج مثل ما أنا، ألن يراني بعبثيتي بعد الزواج، وأراه بأسنان صفراء لا يغسلها إلا كل أسبوع وربما أكثر؟ بفانلته البيضاء التي تحمل نصف دائرة تصل إلى سرّته من الأمام ونصفها الآخر في منتصف ظهره؟ وددتُ لو يفهمني، الشاب يا أمي لمَ يرتدي هذه الفانلة؟ هل هي تقليد فرعوني؟

ابتسمت وهي تستمع لكلماتي المرواغة التي تُمرّر الوقت فأكملت:

ـ لمَ لا يرتدي الفانيلات الملونة، السوداء، الرمادية والبيضاء لا أمانع ولكنها فانيلة مشدودة الصدر حمالة منمّقة وليست بنصف صفرة!

أتمنى أن يراعوا مشاعرنا، يكفي مشاهدة الأتراك والهنود، حتى الصينيين، شباب منظم يهتم بأوقات مكوثه في المنزل على عكس الشاب المصري، بالخارج بيه، وبالداخل مُهمِل وغير مرتب، قاطعتني بذكاء:

- استعدي الآن وعندما يذهب سنتناقش سويًا في كل شيء، ويُمكن أن نُرسل خطابًا بملاحظاتك لوزارة الشباب والرياضة.

- أراكِ تأخذيني على قدر عقلي، تتماشين معي لأخرج فحسب، أليس كذلك؟

- نعم.

- أحترم صراحتك يا أمي، لذا سألحق بكِ.

ابتسمت برضا، تدعو بقلبها وتنطق عيناها، تطلب الاستقرار والستر لابنتها الوحيدة، تعلم أن سلوى لا تضيع فرصة إلا وتحرجني بها، لا أدري لمَ شخص يمتلك ما ليس عندك ومع ذلك شغله الشاغل أنت، كيف يقهرك، يجرحك، يبكيك؟ أفراد مجهولة الهوية، فاقدي الإحساس.

صففتُ شعري بتأنٍ، ثم وضعتُ فستانًا رقيقًا زيتوني اللون على جسدي، مطرّزًا باللون الذهبي، كمّه واسعًا وطويلاً، أمل من الملابس التي تحتاج قطع تكملها مثل "البلوروه"، أو "الكاردي"..

ارتديتُ حجابي ثم خرجت، لا مزاج للتزيّن، عقلي فارغ من الاهتمام وقلبي من الهوى، أقبلت عليهم قائلة ببشاشة مصطنعة:

- السلام عليكم ورحمة الله..

غرفة الضيوف ملئية بالبشر... يشهدون حدثًا جللاً بالنسبة لهم كأنهم يشهدون حفل تزاوج لحيوان الفقمة على ساحل إحدى المدن الجليدية.

أمي على يميني، تلتها والدة العريس ووالده أما هو يجلس في المواجهة على الأريكة الكبيرة، بجواره مكان مهيئ خصيصًا لي، وكأنها مؤامرة للإيقاع بنا..

جلستُ بثقة رافعة جبهتي للأعلى، متأهبة لأي سؤال، قالت حماتي المستقبلية:

"تبارك الله، أبنتكم أدب وجمال."

نظرتُ إليها باختصار لا أريد تلاقي شعاع أعيننا فتظهر الحما وتنقلب فجأة، الغيرة قاتلة... قلتُ باقتضاب:

شكرًا، هذا ذوق من حضرتك.

رمقتني أمي بنظرة حارقة أصابت قلبي، طلبت مني حمل صينية المضايفة ولكني تعمّدت تركها على رخامة المطبخ، لا تصدّق أنه لستُ أنا تلك الفتاة الذكية التي تُمسك بالصينية وتدور حولهم فردًا فردًا تعطيه كوب العصير، لو أصرّت لذهبوا بعد دقيقتين من

رؤية الكاسات وهي ترقص بغنج بين يديّ، وربما قلبته على صدر حمايا العزيز دون قصد..

أعتقد أن التقديم مهمة الرجال يكفي علينا تحضيره.. تداركتُ الموقف بحكمتها وانخراطها مع جيرانها المتملقات، فرغنا من الترحيب والتأهيل جاء دور التعارف قال بعد استقامة ظهره:

- اسمي إسلام، خريج آدب وأعمل مدرس جغرافية، أعيش مع أبي وأمي وأخواتي، بعد الزواج سننتقل للدور الثالث. أخي رأفت متزوج في الثاني ولديه بنت لم تتجاوز عامها الثالث.

انتهي من تقديمه الرسمي، منتظرًا مثله، ولكن ردي فاجأه:

- أحتاج للنقاش في بعض النقاط أهم من أي كلام.

- تفضلي.

- رأيك في عمل المرأة؟

أمسك بنظارته الزجاجية، تنحنح أولاً ثم قال:

- لا دخل لي بعمل المرأة، ما يهمني أنتِ.

- جيد رد يفيد بقدرتك على احتواء المرأة، لكن أريدك أن تعي ليست كل النساء تسكن بكلمة لطيفة يتبعها حضن.. هناك من لا تهدأ ما دام عقلها يعمل، أقنعني برأيك.

- سنتشارك في كل شيء، حتى راتبك، للبيت، ولأولادك إن شاء الله.

صاحب رؤية اشتراكية مُبهجة. قلت:

- إذًا مَن سيغسل الأطباق ومن سيُنجب الأطفال، من سيرتب البيت، من سيُحضّر الطعام، من سيغسل الملابس، من؟

الجميع في حالة ذهول من سؤالي خاصة النساء، أول من يكسر ظهر المرأة هن النساء بنات جنسها للأسف رد والده يحاول تلطيف حدة الموقف:

- اتركي التفاصيل لكما بعد الزواج يا بنيتي.

قلتُ بصوت هادئ يحترم سنه وتدخّله الموزون:

- آسفة يا عمي أكثر ما يوجب الفرقة بعد الزواج هي التفاصيل، جاوبني يا إسلام.

- أنت طبعًا، هذه مسؤولياتك.

- جميل جدًا.

- إذًا بأي حقٍ تُريد اقتسام راتبي؟

احترمت صراحتكِ في البداية، ولكن الآن اسمح لي لا أوافق على طريقة تفكيرك، لن أقول لك شرعًا هو مالي وذمتي الخاصة ولكن إنسانيًا لمَ تذهب لعملك وتأتي تسترخي، تستحم وتنام أو تذهب إلى القهوة وتقابل أصدقاءك وتمر في طريقك ترى أهلك، تتناول الآيس كريم في الشارع، تتناول عشاءك بحرية الساعة العاشرة، الحادية عشر! لا يهم الساعة تقف أمامكم أعلم..

بالمقابل أنا الكائن المأجور بعقد الزواج، أذهب للعمل مثلك، أعاني زحمة السير وحرارة الجو، أعود لأجد قصة كفاح النساء الحقيقية تقبع في قلب بيتي، زوايا مطبخي، مهام لا يسعني عدّها ولكن على سبيل الشرح، أجد غرفة النوم مثل ما هي، بطانيتك التي دثّرتك ليلة أمس مُلقاة على ظهرها بلا رحمة، جواربك في الصالة، بنطالك في غرفة الضيوف، حزامك في الحمام لا علينا بتفاصيلك ولكنها تظهر إهمالك ومدى اتكاليتك.. أقوم بتنظيف المنزل غرفة غرفة، ثم الحمام، ثم المطبخ، ثم تحضير الغداء قبل أن يصل حضرة السفير المستأجر عندي..

ثم أضع الغسيل في الغسالة ثم... ثم... ثم أعتقد أنك سئمت من طول كلماتي عن مسؤوليتي فما بالك بفعلها؟

لا أريد الزواج إذا كانت الحياة مجحفة هكذا.

- تعتقدين أن جمالكِ سيدوم وأنكِ مطلبًا لكل الشباب لذا تتبتري علينا..

قالتها أم العريس بانفعال، أنا حقًا لا أحتمي بعيوني الواسعة، وشفتاي الصغيرة، أعلم أني فتاة عادية ولكني أفكّر... ما قلته حقي.

- آسفة يا جماعة هذه المرة لن ننتظركم حتى تمنوا علينا بالرد بعد أسبوعين هذه الزيجة لا تناسبنا. لم يمنعني أبي أو يعترض، يؤمن بحريتي، فأنا تربيته القوية، دائمًا ما يُلقنني دروسًا عن الشراسة وحماية نفسي، كيف أقتلع حقي من فك الأسد لذا صدق على رفضي بطريقته الذكورية قائلاً:

"يبدو أن الأولاد لم يتفقا، لا يمنع أنها فرصة سعيدة جدًا وأن علاقتنا خير وأنتم أناس صالحون."

استأذنت، غادرتهم قبل أن تُغادرني أرو... روحي... كياني... تركتهم خلفي لأني أؤمن بك، أراك أمامي، بسمة أمل تنتشلني من وعثاء النصيب، نور حقيقي يمسح عن عيني ظلام النفوس وعمى القلوب، من يقبل أن يقود ساقية لا يحزن إذا لُقّب بالثور..

أزحت دبابيس الطرحة، كدتُ أختنق، الآن ومع تحرر خصيلات شعري المموج مثل أمواج البحر الغاضبة شعرتُ بالحرية، أغمض عيناي لأراك، على يقين من وجودك يا نصف روحي، أشمك بأنفاس بطيئة تملأ صدري فيرتفع لأعلى، أنت معي، أستحضرك متى أردت.. أتحدث معك..

أرتوي من حضورك المشبع. الحب الحقيقي هو امتلاء قلبك بروح من تحب، وعينك بصورته وابتسامته، وعقلك بشخصيته وتصرفاته، دائرة مكتملة الأركان، لا يستمر بدونهم...

ألقيت بالفستان بعيدًا وأنا أسقط على ورقات المكتب، أغلقت فمها فلم تعد تتحدث عن الفقد والاحتياج، جعلني حرة طليقة أفكّر حريًا في الذهاب للقاهرة وأخذ دبلومة مهنية في التخاطب وتعديل السلوك، ومنها تغيير الوجوه...

****

يمنى

الحب كلمة ملعونة، قلادة مسحورة، باب سرداب لا يملك داخله نهاية مأمونة، طريق مجهول الوجهة، لا بد من عازول يفرّق، قلوب جاحدة تهدم آمال المحبين، يُمكن أن يتغلّب الواقع على الحب ولكنه لن يُمحى، سيظل الحبيب عالقًا في رقبتك، على جدران المعابد وأسوار القصور المدهّبة، حسم الموت نهاية ابن الباشا وبنت الخادمة ولكنهم لن يستطيعوا تشييع ذكرياتها من قلب عابد، ظل يذكرها كل مساء، كتبها بكل اللغات الممكنة، خلدت قصة عابد وبدور برغم السنوات المتتالية...

أغلقت الرواية بحالة يرثى لها، الحب كلمة رقيقة، بهجة لما نعتها الكاتب بالسحر واللعنة..

لمَ يقف المال، السلطة، النسب، الجاه، بين القلوب العاشقة؟ لو نظروا بصدقٍ لعيون الحبيبين لعلموا من أين تشرق الشمس، النور الإلهي، الرحمة الحقيقية التي تؤلّف بين القلوب..

السلام الأخضر لون الطبيعة والفطرة السليمة.. السعادة وراحة البال.. شعرت بحاجة إلى فنجان قهوة، أستنشق هواءها فتملأ رئتيَّ برائحتها اللذيذة، دلفتُ إلى المطبخ في هدوء الساعة نائمة بين السادسة والسابعة لا يمر الوقت إلا سهوًا حين غفلة من

زحمة السيارات، واندفاع البشر، انغماسهم في مهامهم اليومية، أقف أمام الموقد منتبهة فالقهوة كالحليب كلاهما ينتظر غفوة ليُسكب ويضيع بهاءه، وضعتها في كوب زجاجي تزيد المتعة برؤية وجهها الشهي لا فرق عندي فيما يفعل البعض بوجوب شرب القهوة في فنجانٍ مخصص، ركن القهوة كما تتجه بعض النساء في منازلهم، أرى هذه الأمور توافه بالنسبة لما يشغلني من دراسة وعمل، تناولت الكوب وذهبت إلى غرفتي..

لمياء تحضر لزفافها قليلاً ما أراها، أصبحت أنشط مني تستيقظ مبكرة، تذهب للتسوق واختيار الأثاث، والملابس وغيرها من احتياجات العروس، أرتدي بيجامة سوداء مطرزة باللون البني، لون القهوة التي أحتسيها، بجيوب على جوانب البنطال، وضعت يدًا تستند بالاتجاه الأيسر، أرتشف القهوة على مَهَل، كالأنثى المميزة تستحق الاهتمام وتخصيص بعض الوقت، حرّكت الستائر بعيدًا، أريد هواء الصباح الغالي، من تعوّد على الصباح يُصبح كالأسماك تموت إذا خرجت من الماء أما هو فيشعر أن يومه ناقص بلا بركة البكور وساعات الفجر.

الجو هادئ مع استيقاظ بعض الناس وفتح أبواب المحلات، وقعت عيني على الشرفة المواجهة لغرفتي أول مرة أراها مشرعة..

ظهر شاب في السادس والعشرين من عمره، يرتدي منامة بنفس اللون الذي أضعه تقريبًا، انتبه لوجودي رفع يده ملوحًا، قررت تجاهله، أمسكت بالستار ولكن هذا الوجه مألوف بالنسبة لي، كان عمرو يلوح بكفه في البداية ثم بدأ بإشارة لا تغلقي الستار كمن يقول ركزي لستُ غريبًا. ابتسمتُ بفرحة حقيقية، وجدتُ إنسانًا يعرفني ويحاول التواصل معي، تعمدتُ إغلاق الستار..

فرغتُ من قهوتي وفترة التريض الطويلة، ارتديتُ ملابسي لأذهب للجامعة قبل الدكتور بحثي الخاص بتطوير الهواتف الجوالة ووعدني ببيع المشروع والحصول على مكافأة من دعمي للتطور التكنولوجي، الجيب الأبيض يزيدني أنوثة، وضعت فوقها بلوزة زرقاء أهدى من لون عينيّ السماوي، حذائي رياضي مرن يساعدني على الحركة والخِفة في التجوّل حول الجامعة ومواقع العمل.

لحقني عمرو كأنه ينتظرني من مدة خلف البوابة، تسابقنا الخطى ولم أبدِ اهتمامي به حتى خرج على الشارع العمومي أوقفني نداؤه:

- يمنى.

نظرتُ إليه بطرف عيني قائلة برزانة:

- أهلاً يا عمرو، ماذا تفعل هنا؟

- أفهم أنكِ لم تتناولي وجهي مع قهوتكِ الصباحية!

انطلقت ضحكتي معترفة برؤيته فقلتُ:

- في الحقيقة كان صباحًا جميلاً، كيف حالك؟

أردتُ أن يقول كيف جاء إلى هنا، ولمَ؟

حتمًا يلحقني.. قررتُ ممارسة اللعبة معه، لما أفعلها مع رفيقات الجامعة ولا أمارسها عليه وهو أولى! بدأ في السرد ولكني أوقفته:

- آسفة يا عمرو، لن أستطيع الوقوف معك أكثر، والدي كبير العائلة بمثابة عمدة القرية مما جعلني محط اهتمام أعتقد أني مراقبة طوال الوقت، عن إذنك.

وضع يد على مؤخرة شعره والأخرى على خصره، فكّر داخليًا، لن أتركها تعتقد أني سهل وبلا قيمة، يجب أن أبهرها بي لتقبل بالقرب مني، رفع صوته مرة ثانية:

- وأنا أيضًا لي عائلة كبيرة تعرفها المحافظة كلها.

أبطأتُ الخطى قائلة باهتمام:

- ما اسمها إذًا؟

تلجلج قبل أن ينطلق الاسم من فمه قائلاً:

- ها... عائلة المهندس رفعت الحاوي.

- حقًا!

- تعرفينه؟

ابتلع ريقه بصعوبة قبل أن أجبه:

- لا أعرفهم شخصيًا ولكن أسمع عن ممتلكاتهم الكبيرة، مزارعهم ومصنع الملابس أيضًا.

-ما اسم عائلتك يا يمنى؟

سألني ونحن نمضي قدمًا بقدم، الحديث يبني بيننا روابط وجسورًا رحيبة، انتظرتُ قليلاً ثم قلتُ على اسمهم، حتمًا لن يذهب إلى والدي دون موعدٍ وإلا رفضه فورًا...

عائلة الحاج عبد الستار رزق قال وهو يعقد حاجبيه الطويلة:

- لم أسمع بهم من قبل، بماذا يعمل والدك؟

- بالتجارة ولا تسألني أكثر تأخرت، مع السلامة.

احتضنتُ "الإسكتش" الكبير، أحتمي به من الأسئلة الصعبة، دلفت من بوابة الكلية وأول شيء فعلته هاتفت ريم زميلتي في المحافظة قالت:

- يمنى، ما أخبارك؟

- لم أطلبك لنتجاذب أطراف الحديث أريدك في أمرٍ هام.

- تفضلي يا بنت عمي عبد الستار.

- أريد معلومات عن عمرو رفعت الحاوي، ضروري جدًا. سُمعته وأهله وأملاكه طبعًا.

- تمام.

- في المساء سأطلبك.

على الجهة الأخرى يقف عمرو دون أن يبرح مكانه، لم يقود سيارته القريبة كما صرّح ليمنى.

طلب نهاد موظف في مصنع الملابس ودار بينهما ذات الحوار، يريد معلومات عن يمنى، يطلبها فورًا، ليضع خطة لاقتناص هذه الفرصة وصيد الفريسة المتكاملة، مال وجمال أميرة حقًا؛ فعيناها زرقاء أصفى من ماء البحر، أنهى نهاد الحوار قائلاً:

- خيرًا، أهناك مشكلة؟

- لا، موضوع كبير، بعدين أفهمك.

- وهو كذلك.

بعد ساعة سأحادثك. ذهب عمرو للشركة، فتح الحاسوب وبدأ في العمل، أمامه عدة ملفات يجب تسجيلها على بيانات الشركة، ساعات العمل قاربت على الانتهاء دون أن يدري، أخرج الهاتف من جيبه ليجد نهاد طلبه أكثر من مرة، أعاد مهاتفته بسرعة فقال متلهفًا:

- ألو.

- ألو.

تعلو ضحكات نهاد المتواصلة، تعجّب عمرو من ردة فعله فقال:

- ماذا بك؟ طلبت معلومات وليست نكتة.

- قلت إنه رجل أعمال، صاحب مصانع وتجارة كبيرة؟

- نعم.

- هههه هههه..

عاد للضحك من جديد ثم قال:

- نعم هو صاحب تجارة مهمة جدًا، في السينمات وعلى الكورنيش..

- ماذا؟

- تحدّث بلا مزاح.

- إنه صاحب عربة ترمس استقريت الآن! لديه ثلاث فتيات دون أولاد لمساعدته، رجل مكافح ومحترم لا يقبل الصدقة، ابنته الكبرى متزوجة والثانية يمنى عبد الستار مجتهدة دخلت كلية الهندسة هي أمل الأسرة الصغيرة في الوقت الحالي، ينتظرون تخرجها بفارغ الصبر لإعالتهم ومساعدة والدها...

-لا أعرف أهي معلومات سارّة أم مُحزنة لا بأس، أشكرك يا صديقي.

- العفو.

أغلق عمرو الخط والبسمة لا تفارقه، يفكر في لحظة مواجهة المهندسة الكبيرة صاحبة الصون والجاه..

انتهيتُ من اليوم الدراسي، كان شاقًا محاضرتين وثلاثة سكاشن، لا أستطيع مقاومة فضولي وانتظار ريم، طلبتها وأنا في طريقي.

فقالت:

- ألو.

- الو، ريمو ما الأخبار؟

- خير، وشر أيضًا.

- انطقي لا يهمني نوع الأخبار المهم الحقيقة، أهو فلاتي وسمعته سيئة؟

- لا، بل خجول طينة، اطمئني من هذا الاتجاه.

- إذًا هناك قلق من جانب آخر؟

- نعم، المهندس رفعت الحاوي عقيم ليس لديه أولاد.

- لكن عم...

- انتظري باقي التفاصيل.

- **سألت عن اسم عمرو في محيط المهندس فكانت المعلومة الأكيدة أنه ابن السائق الخاص به، يعمل في القاهرة عندك وعندما يأتي زيارة يصبح السائق بدلاً عن أبيه الكبير بالسن.**

أطلقت ضحكاتي على ما سمعته، عمرو شحاذ مثلي ويدّعي الفضيلة، غدًا سأواجهه ولن أعطه فرصة ليرد، سأقول كلمات متعجرفة ألقيها في وجهه دفعة واحدة كي يبتعد عني، حتمًا لا يعرف حقيقتي فأنا بنت التاجر صاحب الأملاك وهو ابن السائق المسكين..

(٩)
الحنين

دندنة نسائية تنطلق من زاوية متطرفة في شقة صغيرة بمنطقة المهندسين، يذهب الهواء نحو أصوات الطرب الأصيل فتستمع إلى صوت الرائع محمد فوزي يقول:

"ليا عشم وياك يا جميل إن بوحت بالسر تصونه، مكتوب عليا أحب وأميل وحبيبي وحشاني عيونه..."

أقف بملابس رقيقة شفافة، أجلي الأطباق في الحوض، أدور كلما سرى لحن الأنغام في أذني، كأنه يسمعني مشاعره، يبثني أشواقه الحارة، قبلاته الدافئة في نهار ممطر أتحداه بجسد مجرد من احتياطات الشتاء الثقيلة..

تمنيت لو أخلق في زمن غير زماننا، في عصر مضى، أعشق رائحة الماضي السبعينيات، الثمانينيات، وربما الستينيات، أيهما شاء القدر فليعدني إليه.. إلى صوت محمد فوزي عبر موجات الراديو، عندها يمكن أن ألاحقه بشدة مثل ما فعلت المرأة المجهولة مع فريد الأطرش، أحبه برغم المسافات الكونية، برغم السنوات البالية والجسد الفاني، لا أملك سوى طلب الرحمة لروحه الراقية والاستمتاع بفنه الخالد، أقلّب الطعام فتهفو رائحته تارة وأكمل تنظيف الحوض تارة أخرى، لم أنتهِ من عملي في مملكتي الوحيدة، ركني الخاص في بيت شريف هو المطبخ، أحب أعماله ولا يحبه أبدًا، ينتظر الطعام على المائدة بشغفٍ ولا يمد يده في المطبخ، كم تمنيتُ أن أتزوج برجل مميز يحب الطهو كما يحب الأكل، يحب العمل بيده كما يرفع صوته كأجراس المعابد عندما ينقلب الكوب من يد ابنتنا حور، أو يضيع له غرض...

رن الهاتف، قطع خلوتي الطويلة همهمت قائلة:

من يطلبني يا ترى؟

وضعت الطبق الزجاجي على مهل، شطفت يدي بالماء ثم جففتها بفوطة المطبخ سريعًا، إنها هديل بعد الزواج أصبحنا أصدقاء نتبادل اهتمامنا وربما تطرقنا للمشاكل المشتركة، فتحت الخط قائلة: - ألو.

- ألو، كيف أنتِ يا لمياء؟

قالتها بحزن، صوت مهزوم يبحث عن مستمع يفضفض له، إنسان أمين يغض الطرف عن مثالبها كي تستطيع البوح له، قلت بصوت رخو: -الحمد لله في خير وإنت؟

ـلستُ في خير، أعتقد أني تعجلت في زواجي من مسعد، كل يوم أكتشف كذبة جديدة، تخيلي اليوم علمت بالصدفة أنه مطلق ولديه بنت!

لم أكن الزوجة الأوبي كما ادّعى، طلبتني طليقته ترجوني أن أحادثه عن حق ابنته، لا يودها، يقصر في نفقاتها، لا يهتم بمناسباتها المدرسية، تظاهرت بمعرفتي بهم، لا أريدها أن تنتصر كأنثى على غريمتها ولكنها منتصرة بالفعل، مزقني كلامها عن أسلوب حياته وكذبه الدائم عندما يتأخر أو يغيب، أكدت لي شكوكي.

مسعد خائن متعدد العلاقات.

لا أعلم بماذا أضمد جراحها المفتوحة، عدة ثقوب تنزف، لن يفهمها ذكر يمضي بغرائزه بين النساء.. عضدت على شفتاي محاولة كظم غيظي، فأنا الأخرى أعاني من تصرفات شريف، جميعهم يطمئن بعد عقد الزواج، ضمن زوجته، أصبح عقد البيع سأرى بضمان امتلاك العين..

قلت بثبات أحول عدم إقحام همومي في حياتها:

ـ لا تحملي روحك فوق طاقتها، انتبهي لصحتك ابنك ياسين يحتاجك، اتركيه يفعل ما يشاء، أمّني نفسك منه بكل الطرق الممكنة، أمواله التي أعطاها لكِ احتفظِ بهم بعيدًا عنه، مجوهراتك، متعلقاتك الثمينة، لا تعلمي ماذا سيحدث غدًا؟ يكفي مشردات، أو مجبرات على العيش..

تنفست بصعوبة، ذرفت دمعة في الخفاء ثم قالت تحاول الهرب مني، تريد لملمة حبات الدمع المتساقطة:

ـ سأحادثك في وقت آخر.

ـ لا بأس، فقط كوني بخير..

عدتُ برتابة إلى الموقد أبطأت النيران لا داعي لتطييب الطعام الآن، لا زالت الساعة الرابعة وشريف يأتي متأخرًا. دلفت إلى غرفة النوم، جالت عيناي في أرجائها، لونها البرتقالي الفاتح جعلني أبتسم، يأخذني رويدًا إلى ليلة الزفاف

أول لقاء شرعي بيننا.. جلست على مقعد التسريحة أخرجت ألبوم الصور، ما يبقى للفتاة من عرسها، الصورة الأولى نقف وجهًا لوجه يضع يد على خصري مرتفعة قليلاً لأعلى ظهري والأخرى على رقبتي العارية، لم أتحجب يومها طلب مني ذلك، وافقت بحجة أنها ليلة في العمر..

شعري الأسود ملموم يعقد جلسة سرية بشكل دائري يزينه دبوس شعر على شكل نبضات القلب، التُلي طويل أتذكر أختي وبنت أخي وهما تحملانه خلفي، عيناي في عينيه وأنفه ملاصقة لأنفي، شفتانا على مقربة من اللقاء ولكن المصور اكتفي بهذا القدر، صورة بألف وعد، تقول الناظر إليها أن العروسين متيمان ببعضهما، يداه المحاصرة لكتلتي جعلتني أطمئن لما سيحدث بيننا عندما يغيب المعازيم، خُيّل لي أنها مثل أول ليلة في القبر، لا أعني تشاؤمًا ولكنها حقًا متشابهة، نرتدي الأبيض، نذهب لمكان جديد لأول مرة...

نعم، لأول مرة برغم قاهريتي إلا أن أبي عقلية قديمة، رفض ذهابي إلى شقة الزوجية إلا بعد الزواج...

فيما بعد علمتُ حُسن قراره.. كنتُ سأخجل من رؤية حماتي وحمايا بلا رابط الزواج، أصبح فرجة العائلة، بالإضافة إلى أشواقنا الجارفة حتمًا كانت ستلحقنا أينما ذهبنا ويحدث المحظور..

صعدنا الشقة في الطابق الخامس قال شريف مبتسمًا بإشراقة ذكورية:

-تريديني أن أحملك إلى الشقة أم بداخلها؟ صوته يحثني على الرفض، واختيار داخل الشقة، سوف تنقطع أنفاسه إذا حمل خمسة وستين كيلو جرامًا بين ذراعيه فقلتُ رأفةً به:

- احملني على باب الشقة.

تقدّم السير لطالما سعدتُ وأنا في ظهره احتمي به من المجهول، وربما أحمي ظهره من الغدر.

شعوران مغايران ولكنهما حقيقة تختلج في نفسي، دائمًا ما أستغل الفرصة لأقف خلف ظهره، مستندة بصدري عليه، أضع يدي متشابكة على صدره وربما تتحرر لتلامسه بحب، تسري بين شعيرات صدره الكثيفة، تسبح في هيام لا ينقطع، لحظات لا توصف إنما تُعاش..

عند الباب حملني بقوة على غير المتوقع، سعادته تملأ عينيه، قال بأمل:

- تفضلي يا مولاتي، أنرتِ شقتي المتواضعة.

كانت رائعة وليست متواضعة كما يقول، الطرقة ممر طويل إلى الصالون، واسع به أريكة رمادية اللون أمامها طاولة دائرية الشكل أسفلها سجادة زيتية متداخل معها اللون

الذهبي، فوق الطاولة فازة من ورود الليلك المميزة، جميعهم باللون الأبيض ما عدا ثلاث زهرات بنفسجية متماشية مع لون الحائط الخلفي للركنة أما بقية الحوائط فهي بيضاء، ذوق بسيط اخترناه معًا ولم أتوقع النهاية الرقيقة هذه..

يجول وأنا بين يديه، الطرحة تتبعنا حبوًا على الأرض، اتّجه نحو غرفة فاتحة اللون توقعت أنها غرفة النوم فقلتُ مغيرة اتجاهه:

- أين غرفة الأطفال؟

قال بدهاء:

- هذه أولاً ثم بعدها ستأتي الأطفال.

حرك شفتيه بقبلة هوائية كالمعتاد، الشفا العلوية تقبّل السفلية، صفعته على كتفه قائلة بدلال:

- شريف، لا تحرجني.

-أي إحراج، الثقيل جاي وراء.

حاولت التملّص من يديه، يكفي، شعرت أني محاصرة، مستحوذ عليّ بقوة، دلفنا معًا حيث السعادة والهناء وضعني على حافة السرير المفروش بمفرش ستان بيج لم أفضل الأبيض في السرير أيضًا، آثرت تدرج الألوان، نزع البيونة بجسارة وهو يطير مثل العصفور السعيد، أراقبه بحب، قبل الخوف من جنانه، اقترب مني فجأة، أمسك كفي وجلس على الأرض، قال بحنان:

- عزيزتي لمياء أحبك، وسأبقى أحبكِ مدى الحياة، أود أن أسألكِ بشكل خاص.

- تفضل.

- تقبلين الزواج بي؟

- شريف، أنا بالفعل زوجتك.

-لا، أقصد تطبيق العقد.

ابتلعت ريقي بهدوء، حاولت سحب يدَيّ بخفة لكنه أحكم قبضتها، قائلاً بسياسة:

- أنا حبيبك، الرجل الذي سار بجانبك طول أكثر من عامين، لم يتغير شيء سوى أن أجسادنا اليوم سمح لها باللقاء، تحررت يداه من القيود، أمسك بشعري يفك خصيلاته برفق، سقطت طرحة الزفاف على الأرض، يقترب أكثر فتلفحني أنفاسه المتصاعدة، أغمض عينيّ كلما اقترب، نسمة هواء أفتقدها..

عندما تتزوج عن حبٍ ستجد أنه لا مكان للخوف بل كل المستحيلات ممكنة..

أول مرة تلتقي أجسادنا بهذا القرب، خشونته وقوته مع ضعفي ونعومتي، سماره مع بياض لوني، يداي المطلية بمناكير بمبي تتحسسه بشوق همس في أذني قائلاً:

- خائفة مني؟

- لا..

- لمَ؟

-لأني أحبك، الحب لا يعرف الخوف، بل يمدنا بالقوة، يجعلني أستمتع بك مثلما تستمتع بي، أشعر بك مثلما تشعر بي، يجعلنا اثنان في السرير لا واحد فقط يستمتع ويفرغ شهوته ثم ينتهي...

كل الإنجازات التي يُمكن الوصول إليها شيء وزواجك بمن تحب شيء آخر، نظرة الحياة في عينيه بعد رؤية قطرات الدم الأولى لا تهدى لعاصي،

نظرة فخر باختياره..

زوجته الطاهرة ربيبة أناس شرفاء يقدرون قيمة الأخلاق والقيم..

قبلني بين عينَيّ، كمن يشكرني على حفظي أمانته، هي كذلك لطالما شعرت أني ملك لغيري، رجل حقيقي يحفظ قلبه وجسده، عقله وتفكيره لي، عندما تزوجت وددت لو أقولها له، تسلّم أمانتك.. ولكن بقبلته الطويلة هذه يصلني رسالة جديدة، يطالبني بحفظ الأمانة إلى الأبد وزاد عليها عرضه وسمعته، أغلقت عيناي وقلت:

- لا تخف الفضيلة تنبع من داخل الفرد فمهما حدث لن أخذلك..

وضعتُ الألبوم في الدرج، استيقظت حور من قيلولتها الصغيرة، ذهبت إلى صوتها الحنون فإذا بها أمامي في الصالة، هذه الكائنات الصغيرة من أخطر ما يمكن..

خلقت لتسعدنا وتفاجئنا.. تجدها في أي وقت وفي أي مكان.. تظهر فجأة أمامك يمكن إذا لم تنتبه أن تدهسها بقدميك ثم تمضي فلا يعيدك سوى صوت من تحت الأرض يبكي.

بلغت عامها الثالث، أرى نفسي فيها ما أسرع مرور الوقت! رفعتها إلى قلبي مؤشرة:

- هنا مكانك يا حور، قلب أمك.

- أمي أنا جائعة.

قالتها بصوت صغير يخطو أول خطواته نحو النطق..

- يا حبيبتي، هيا، اجلسي هنا.

وضعتها على كرسي الطعام وأحضرت لها بعض الأكل المعد للكبار، طبق أرز بشعرية مع معلقتين من البازلاء وقطعة لحم:

- تفضلي يا أميرتي الصغيرة.

دق جرس الباب فأقبلت وأنا أحادثها:

- ها قد أتى أبوكِ معه المفتاح ولا يكلف نفسه عناء الدخول، فتحت الباب فقال مسرعًا:

- الحمام فاضي؟

- أهلاً بك.

دائمًا ما تطلب الحمام وكأنه لا مكان تقضي حاجتك به سوى حمامك. قلتها بصوتٍ منخفض ثم تبعتها ضحكاتي، قبلني خاطفًا ثم حور أيضًا، ترك مفاتيحه وهاتفه على الطاولة ثم اختفى، سمعت صوت تشغيل المياه، حتمًا سيتأخر، أمسكت بالهاتف أتفحصه، شعور لا إرادي يدفعني لبدء المراقبة الدورية، لا أبحث عن شيء معين ولكنها عادتي، التأكد من مشاعره بطريقتي، قلّبت في التطبيقات، الواتس تمام، الماسينجر لا شيء، البحث في جوجل تمام.

بقيت صفحته على الفيس بك، البحث تتصدره صفحة أميرة، علمت أنها حبيبته السابقة ولكن لمَ؟

لمَ يبحث عنها بشكل مستمر برغم زواجنا؟

ملَّ من علاقتنا أم أصبح وجودي أمر اعتيادي فبدأ يبحث عن جديد، وإن كان الأمر كذلك لمَ لم أفعل مثله! أمامي فرص كثيرة ولم أخنه أبدًا، أما هو فيبحث عن الفرصة منتظر اللحظة المناسبة..

خرج من الحمام، يُجفف شعره بأريحية قائلاً:

- حضري الغداء إنني أتدهور جوعًا.

باغته بشاشة الهاتف قائلة بغضب:

- من أميرة؟

- من؟

- أنا السائل، ها هو الهاتف، تبحث عنها باستمرار وتدخل صفحتها، تراك تفتقدها؟ زواجك مني حرمك منها أليس كذلك؟

-لا أقسم لك إنها لا تهمني، مجرد فضول.

ـ فضول، بالنسبة لك أمر عادي إنما لي فهو خيانة، إحساس مر، مذاقه سيء على قلب المرأة، من قبل وجدت رباب فقُلت رفيقتي أيام الجامعة، مررتها بإرادتي أما هذه فأعلم من تكون، يكفي هراء، التزم تجاه مسؤوليتك، انظر جيدًا بعينيك قبل أن تصبك غشاوه تحجب عنك الرؤيا، يصبك عمى اعتياد النعم...

ترى وجودنا عاديًا، استقرار منزلك عادي، مكوثي في المنزل بلا عمل عادي، لا تراعي أنها تضحية مني يمكن سلبها في أي وقت.. لا تعتقد أن العمى فقدان البصر فحسب لا بل هناك عمى أعمق من سطحية المعنى الظاهر، عمى القلوب أصعب، فاقد البصر يرى بقلبه، وفاقد بصيرته في عتمه لا يرى أبدًا، قلتها لك إذا دخل الشك قلبي فصدقني لن ترى وجهي ولن تعرف لي طريقًا، أول ما يتبادر إلى ذهنك حور أليس كذلك؟

خذها سكينتك التلمة التي تحاول ذبحي بها..

خذ كل ما لك عندي إلا أنا سأعاقبك بي يا شريف وصدقني أنه عقاب مثمر مع الوقت، ستعرف عواقبه...

ـ انتهيتِ؟

أتنفس بصعوبة بعد نوبة الانفعال السابقة، لم أجبه، اقترب مني فدفعتُ يديه، لا أريد حججًا وأكاذيب منمقة، اريد حقائق ملموسة ووعود صادقة.. دق هاتفه بنغمة رومانسية لم أسمعها من قبل، نظر كلانا للهاتف وأصبحنا في مأزق من سيجيب؟ ومن المتصل؟

****

تمارى

كلما افتقدتك أتيت إلى محرابك، أقمت عذاء بلا ميّت غيري... أدفن رأسي في نوبة حنين قاتلة، عزلة مخيفة، أحاول لملمة كرامتي المهانة فلا أستطيع، بعد النجاح والشهرة المزيفة التي نلتها تبقى خيانتك هي الحقيقة الوحيدة في حياتي، أمسك بالقلم كل مساء، أسجل تفاصيل يومي، مشاعري المختلفة، بل المختلطة أصدق، أخطائي المستمرة، نوايا الشريرة، وفي النهاية أستحضر أوجاعي، أكشف عن جرحي الكامن بين ضلوعي، يخفيه جبلين بارزي القامة، ثابتين منذ آخر نظرة ذكورية أطلقتها عليهما، حبك بلا حدود، بلا قانون، بلا محرمات، وحدك حبي الحقيقي، جميعهم راحلون إلا أنت، تسكنني..

تستطيع تفرقتي، تمزيقي إلى أشلاء صغيرة، ثم تجمعني بكلمات كاذبة، تنطقها بنظرة من عينيك الخضراء فأذوب على مهل مثلما يتخلص الثلج من برودته شيئًا فشيئًا..

أحبك.. نعم.

أحبك يا حمدي ولا قدرة على نسيانك وربما لا أريد، ارتاحت روحي بعذابك، تجرّعت كأس الوجع بشراهة حتى مُلئ جوفي وسرى في أوردتي، تحولت بداخلي إلى دماء أعيش بها..

أعلم أننا لا يمكن أن نُغنّي أغاني جديدة..

ولن نغزل ثوبًا للفرحة مثلما قال عبد الحليم: "ولكني أنتظرك بلا أمل في بداية جديدة" إنها قصة يجب أن تُروى كما هي، تُكتب بأحرفٍ من ألم، خائن تلاعب بمشاعري وهرب، ومع علمي بكل خطاياه أسامحه، أترقبه كل مساء عندما تغيب الأضواء، يذهب عني تصفيق المعجبين، رائحة زهورهم الباردة، تهانيهم غير المقصودة فهي حتمًا لرحيق، لصوتها الشجي وليست للجسد العاري الذي يتمايل أمامهم..

الكتابة هي سلوتي، لن أذهب لطبيب نفسي كما يفعل أغلب المشاهير ولكني سأكتب وأكتب، وعندما أموت سأوصي بنشر مذكراتي مع الحقيقة، ليعلمها القاصي والداني، الكتابة سحر، أصدّق كلام عن النفس المريضة نعت بها الكاتب نفسه ولم يصدقه أحد، يمكن أن يبكي حبه على مرأى من الكون ولا يسمعه سوى المجذوب نفسه...

يفعل ما يحلو له بكل الوجوه وأسفل كل الأقنعة المزينة.. الكتابة أداة اعتراف وتبرئة، طريقة لتطهير النفوس المعذبة. محرقه لجثث شخصيات تستحق أن تُفضح أمام الجميع بخيرها وشرها.. أبعث إليك برسالة روحية أعلم أنها ستصلك، تأخذك من يديك مثلما كنت تُمسك بيدَيّ، نحو النافذة، تسرقك ليلاً من أحضان زوجتك المصون، ميرفت أليس كذلك؟

أعرف.. لا يهم الاسم المهم إنها امرأة غيري، وليست تمارى الجميلة، البيضاء الذكية، صاحبة الشفاه المرسومة والعيون الواسعة، الخصر المشدود والصدر المرفوع الذي لطالما تمنيت جني ثماره، الشعر الأصفر شديد النعومة، أهي ليست بعرقوب كما كنت تقول؟

تبتسم الآن..

المهم الرسالة هي ..... نقاط، حقيقي هي نقاط لأني لا أعلم ماذا أريد تبليغك، يكفني زعزعة استقرارك وإيقاظك ليلاً.

تغيرت حياتي بعد تزييف الحقيقة والغناء بدلاً من رحيق الدمية الدميمة.

نعم، هذا ما أكنّه لها. لم أحبها يومًا ولن يحدث، هذه مشاعري ولا قدرة لدي على تبديلها ومع ذلك نلتقي وتجمعنا الحياة معًا، بعثنا بفيديو لفاروق عز هي تغنّي في الميكروفون وأنا أسير بدلالٍ أتمايل بميوعة مدعيّة الشعور بالكلمات، ثنية خصري كثيرًا، أشرت إلى قلبي ولكنه في منظور الرجال لا يمثل سوى منطقة وعرة..

قبلني على الفور، اكتملت الأمور مثل ما خططنا، كلما جاءت الأمور بعكس ما نريد أختلق أعذارًا، ذات يومٍ كنتُ في حفلة سمر طلبوا الجميع سماع صوتي فقلتُ بلطف:

- صوتي مبحوح من التدريبات على أغنيتي الحالية يمكن تشغيل بعض الأسطوانات، أو تحميل الأغاني التي تريدون سماعها.

كنا في غاية التوتر، نتملق بعضنا بحذر، تقف إلى جواري كظلي، تمنيت لو أزيحها من طريقي ولكني سأزيح اسمي معها صحيح:

- ماريا، اسمي الفني.

في الآونة الأخيرة لاحظت تغييرًا في عادات رحيق تحاول الذهاب مبكرة، وجهها منتفخ قليلاً، تهتم بحميتها وكأنها تنتظر حدثًا مهمًا وتستعد له، وضعت القلم لا شيء عندي يستحق إضافته، سجلت كل الماضي بما فيه اتفاقية الغناء...

علي الجانب المواجه تستعد رحيق للعملية، ظلت أسبوع في حالة تأهيل لإجراء عملية تجميل لوجهها وأسنانها، كانت رافضة كليًا لهذا الموضوع ولكن والدتها شجعتها قائلة:

- رحيق، يحب أن تخضعي لعملية تجميل بسيطة، تصغير للأنف، وتقويم للأسنان، استمعي إليّ.

-لا، لن يحدث، ما الحاجة لتغيير خلق الله، هذه أنا أحبها على أي حال.

- تسألين حقًا أم تخدعي نفسك، الحاجة أنكِ تستحقين السعادة، تقبل ذاتك، رجل يحبك ويُعجب بك، أقل ما يُقال تظهري بشخصيتك الحقيقية بدون ستار مزخرف يُخفي قبح ملامحك..

-أنا قبيحة يا أمي!

وضعت الأم يدها على فمها، نزلت دمعة من عينيها تحاول قضم يدها ولكنها لن ترجع الكلمة ثم قالت مستدركة:

- لا أقصد، آسفة.

تركتها بدون النظر إلى الساعة، خرجت في البرد يلفعها الصقيع اندفعت بانفعال تواجه الهواء بدموعها الحزينة، تُنادي ربها فتقول:

"يا رب، لا أريد عصيانك ولكني لستُ جميلة، لمَ؟ لمَ خلقتني هكذا وأنت تملك جعلي أجمل الجميلات؟ جلستُ أسفل عامود كهربائي كسر مصباحه الإضاءة أسفله تكاد تكون معدمة، لا ترى فيه شيئًا، جاء شابان يشرب أحدهما سيجارة والآخر ممسك بزجاجة خمر، حاول صاحب السيجارة التحرش بها، قامت رحيق بهلع تتراجع إلى الوراء، فجأة تراجع أحدهم وأكملا طريقهما، صرخت متوترة:

-الحقوني، حد يغيثني يا ناس.

صرخ الشاب مقهقهًا:

- لا، بل يغيثنا نحن...

جحظت عيناها قائلة بحسرة:

لهذا القدر أبدو قبيحة! لا شيء يغريكم بي. استداروا متقهقرين، أسرعت خلفهم أمسكت بذراع الشاب الطويل صاحب الزجاجة قائلة بكسرة:

- جاوبني، لمَ تركتموني؟

رفع يداه متبرئًا من ملمسها وقال بصوت غاضب:

قبيحة ومجنونة أيضًا، لا حول ولا قوة إلا بالله، اذهبي يا أخت ربنا يسهلك.

عاملوها كمتسولة، أغبياء حمقى، لن تغفر لهم بعد هذا اليوم ولكنها لن تنسى فضلهم، فتحوا عيناها على حقيقتها، رأت نفسها حقًا، لن يحبني أحد مهما ادعى، الجمال الشكلي مهم لبناء انطباع أوّلي عن الشخص، بشرتي الداكنة وملامحي المتخاصمة أصبحتا عبء لا يطاق.

دخلت غرفة العمليات وسط ترقب وانتظار، يقف بالخارج جميع أسرتها المحدودة لم يتركها أحد، أبوها أولهم، والدتها، وإخوتها. وحدها تمارى لا تعلم شيئًا، تقبع عاجزة في بيتها، مثارة عقليًا تبعث برجالها إلى منزلها دون فائدة، عقودها مؤجلة ولا تستطيع إتمام أي شيء، ينقصها حنجرة رحيق التي نوت امتلاكها، احتكارها إلى الأبد ولا تدري ما يخبئه لها القدر، مرت ساعات وباب العمليات مغلق، بعد نصف ساعة أخرى خرج الطبيب في بهوه الأبيض، مبلل جبينه برغم برودة الشتاء، ليقول:

- إن شاء الله خير، رحيق جميلة فعلاً ولكنها كانت تحتاج إلى بعض التعديلات البسيطة.

أفاقت من البنج في هيئة أخرى، الجميع في حالة تأهب يتساءل الصغار:

- أين أختي يا أمي؟

الأم تنظر بعيون مشرعة وشفاه مبتسمة:

- ها هي أمامكم. أمسكت المرآة، تنظر بتمعن، تلامس وجهها فتتأكد أنها رحيق، ترى نفسها جميلة لأول مرة، يحتضنها والدها لم يجد كلمات تصف شعوره سوى الفعل

خرجت رحيق من المشفى ولم تذهب للمنزل بل قررت تركهم يذهبون، عنوان شقتهم الجديدة أصبح مألوفًا للجميع، قصدت تمارى، دخلت بسهولة لفيلّتها الحراس يبحثون عنها، وجدت تعارض بين آرائهم، البعض يعرفها بتعجب وانبهار والبعض لا يصدق، يكذّب ما يراه.. دخلت على تمارى وهي تتصفح مجلات الأخبار، تشبع رغبتها في الظهور والشهرة، صورها على أغلفة المجلات وتتصدر الصحف، ألقت بها طريحة الطاولة بمجرد رؤية أنفها المرفوع، قالت بسخرية:

-من؟

رحيق!

-نعم، رحيق ثانية غير التي عهدتها.

- جميل..

اقتربت تربت على كتفها برفق، تعرف كيف تحتوي الموقف، تُدير من أمامها لتحوله إلى كلب مروض في حجرها، تقف رحيق متشبثة مكانها، تتشابك يداها، تستمع ولا تصدّق فقالت:

- جئت لأقول شيئًا واحدًا أنا خل...

قاطعتها الثانية بمراوغة:

- ماذا يا صديقة عمري؟ أنهيتِ ما شغلك عني؟

-لا، بل خلصتُ من العبودية والأسر، من اليوم أنا حرة نفسي، سأغني بشخصيتي.

ضغطت تمارى على ذراع رحيق حتى احمر متمتمة بحنق:

- إنها مزحة، كيف والجمهور يعرفني به، فيلمي الجديد سيسقط بمجرد ظهور الحقيقة، عقود العمل المكدسة بالمكتب من سيؤديها؟

أدبرت رحيق هامسةً:

- آسفة، حلي مشاكلكِ بنفسك.

ذهبت بلا وداع، حاول الحارس منعها ولكن أسنان تمارى المكذوذة منعته من ذلك، أومأت برأسها وهي تحترق: اتركها تغلي كبركان اكتشف للتو في طريقه للفوران، ضربت الطاولة بيدها، نثرت زجاجها في كل مكان، سالت بعض الدماء من يدها دون أن تشعر، صرخت قائلة للحارس:

ـ غدًا كم في الشهر؟

قال بتعجب:

-واحد وعشرون يا فنانة.

هزت رأسها لأسفل مع رفع أحد حاجبيها قائلة عيد ميلاد رحيق، صديقة عمري، غدًا ستمون ماريا ويختنق صوتها إلى الأبد، بعد ذلك أقبل بالتمثيل فقط وأعتزل الغناء.. ضحكاتها بدت مريضة، شاذة، خطرة أكثر مما كانت عليه..

****

هديل

تركت قطعة مني في مبنى مخصص لرعاية للأطفال، لم يتجاوز ياسين عامه الثاني ومع ذلك قررت تركه في حضانة، ما زال العمل وجمع المال شغفي لا أستطيع تضييع الوقت أكثر، بعد التعمّق في الشركة وفهم إدارتها تقاعست فترة حمله وولادته فقط لا داعي لمزيد من الخسائر، يجب أن أحاصر مسعدًا، ولا أترك له مجال للتلاعب بذيله وإلا أتى بالزوجة الثالثة رغمًا عني، وربما سرًا دون إخباري. يرمقني صغيري بنظرات ضعيفة، عاجزة، تخترق قلبي، أشرت للسائق قائلة بحلم:

ـ تحرك يا عثمان.

اندفعت السيارة بقوة نحو هدفي، ضغط على ذراع البنزين فاختفى وجه الطفل في زحمة الطريق، في وجوه المارة وفي إعلانات الشوارع الملونة، في قاعات الانتظار المملة، في آمالي بالنجاح والاستقرار المادي.

وصلت الشركة في سيارة فارهة، خطوتُ بثقة نحو المظاهر والرفاهية التي لطالما سعيت إليها، أصبح الحذاء العالي مفضلاً بالنسبة لي لم أعد أنتقده مثل سابق، بنطالي الأسود ضيق من الوسط متسع قليلاً كلما انخفضت، أرتدي بلوزة قصيرة باللون الأخضر، يزينها عقد طويل يصل إلى خصري، إنه من إيطاليا كما حلمت، برفاني الناطق بالأنوثة والإثارة من باريس، نلت ما تمنيت وفقدت روحي....

اعتقدتُ السعادة في المال والجاه ولكني كنتُ مخطئة.. مجدي لا يزال أعزبًا ولكنه أصبح دكتورًا في علم النفس، صاحب مكتب استشاري كبير للعلاقات الأسرية والصحة النفسية، مركزه مرموق ومميز، أصبح رجلاً جادًا متغيرًا كليًا عن رتابة الموظف التي عهدته بها، دلفت للشركة قررت الدخول إلى مكتب مسعد قبل الذهاب لمكتبي، نهضت السكرتيرة من مكانها عندما رأتني، حاولت منعي قائلة بتوتر:

- مدام هديل، أهلاً وسهلاً. تفضلي.

أشارت إلى المقعد معللة:

- مسعد بيه مشغول في مشروع مهم.

اقتحمت المكتب فورًا ولم أنتظر مثل سابق عهدي كنت أقدس العمل بدرجة رهيبة، أحترم الموظفين ولا أتعالى عليهم بكلماتي، اليوم لا وقت بعد ما عرفته من أكاذيبه، يجب خلع نظارتي العمياء ورؤية وجهه الحقيقي.

سحبت الباب الجرار، المكتب خالٍ تمامًا من البشر، لا صوت ولا أثر لوجود غبريغ، اتجهت ببطء نحو قاعة الاجتماعات، فتحت بابها دفعة واحدة فوجدتها على ساقيه وبين ذراعيه يخاطبها برقة وهو يمسد ظهرها بأطراف أصابعه، صفّقتُ لإبداعه وذوقه الرفيع، حقًا امرأة حسناء مفاتنها بارزة من كل مكان لا يتمالك أشباه الرجال أنفسهم أمامها.

حاول شرح الموقف بلا فائدة، تركته وغادرت في الحال، أي كلام وقت الغضب سيتخذه ضدي ولن أسمح بذلك، رتبت أفكاري على عجل تركته خلفي يلهث:

"هديل، عزيزتي انتظري قليلاً."

رمقته بنظرة غاضبة ثم أكملت السير، الخيانة لا تصلحها كلمات فارغة من العهد.. رن الهاتف منقذًا لي من جنون أفكاري، وحيرة أمري، من انكسار أنوثتي وخذلاني المر، جاء صوت لمياء عابرًا الحواجز:

- ألو.

- ألو، أين أنت؟

- لا أعلم... تائهة.

- حقًا! إذًا تعالي نحن مجتمعون في كافتيريا السعادة.

وافقت متأملة أن تصيبني عدوى الاسم وأنل قسطًا من السعادة... رفيقات السكن مجتمعات. أخفيت نكبتي وتقدمت بخطوات السيدة المرفهة، أغلبهن يحسدنني ولكني في الأصل أحسدهن على راحة بالهن.

- مساء الخير.

كنا في منتصف اليوم، رأس الساعة، قوة الحماس والاندفاع، أصبحت لمياء على يميني، قبّلتهن جميعًا، أركيدة متغيرة، ابتسامتها عريضة، يمنى مميزة بعيونها السماوية وملابسها العملية، معهن فتاة غريبة، أراها لأول مرة، سألتهن عنها قالت لمياء:

- رحيق زميلة في الجامعة.

أهلاً وسهلاً. قالت أركيدة باهتمام مخاطبة رحيق:

- كلمينا عن نفسك ولا تستغرقي في الصمت.

رحيق:

- اسمي معبر عن الجمال والرومانسية، أحب الغناء، لي صديقة واحدة، تجمعنا بعض الصدمات ولكن لا بأس أوشكت على الانتهاء.

لمياء مقاطعة:

- وعيد ميلادها غدًا، كثيرًا ما دعوتها للخروج لكنها ترفض، إلا هذه المرة، كانت هي صاحبة الفكرة، لم تتحدث عن تغيير شكلها، لأن لمياء شخصية فلسفية عميقة، لا تهتم بالشكليات مهما تغيّرت...

تمتمت يمنى بابتسامة: عيد سعيد يا رحيق، أتمنى لكِ عامًا أفضل مما مضى.

- وأنا أيضًا أتمنى ذلك لنفسي.

هنأها الجميع، وقابلتهم بالبشاشة والود نظرت هديل بعيدًا متطرقة لموضوع آخر قائلة بحذر لا يفجعها، أشارت إلى حزنها دون إقرار بأنها تتحدث عن نفسها، تفوهت بهدوء واتزان وهي ترفع ساقها اليسرى فوق اليمنى:

- لمَ يخون الرجل زوجته؟

انطلقت أركيدة بالرد:

- لأنه همجي وشهواني الفكر، مشاعره لم تُهذّب برغم مرور القرون، لا زال يسكن جبلية ويتسلى بغرائزه..

انطلق الجميع في موجة من الضحك العالي عقب تحليل أركيدة النفسي العميق الذي يظهر قلة خبرتها وعدم معرفتها بمعادن الرجال المتنوعة، صبّت جُلّ غضبها مما تسمعه أو تستشعره في كلمات عامة تحط من قدر الرجل دون التعمّق في أهمية الرجال وإنسانية البعض منهم,

أضافت يمنى بثقة:

-كثرة المغريات أمامه، النساء العاريات المتداولات أصبحن في المتناول وربما هن من يسعين للإيقاع بالرجل دون النظر إلى هيئته أو حالته الاجتماعية ما يهمهم حالته المادية.. ينظرن إلى حال جيبه اليوم.

رحيق ببراءة:

- أستغفر الله العظيم. ليس مبررًا يا يمنى، أنسيتِ أنها شرعًا لا تُسمى خيانة بل هي زنا؟! وقلة الوازع الديني أعتقد بسبب البعد عن الله وطريق نبيه.

قالت هديل وهي ترمق لمياء:

- وأنتِ ما رأيك؟

كانت صافنة تتبع هواجسها، عيناها مثبتة على شجرة الورد الجوري في ساحة الكافتيريا، نطقت عندما انتبهت لهدوء المشهد فقالت:

- يخون الرجل عندما يتوقف عن الحب. إذا أحب لن يسمح بجرحها أبدًا، طعنها وتمزيق أواصل الثقة بينهما، تلويث ذكرياتهم الجميلة وهدم ما بنوه بجهدٍ وتعب. الخيانة لا ترتبط بالعلاقة الجسدية كما اعتقدت رحيق وإنما هي تفاصيل ترتقي كلما نضج الفرد، مثل التفكير في غيرك، النظر بإعجاب لسواك، البحث عن فتاته السابقة، الكذب ولو في تفاصيل تافهة، لا تحب المرأة من يكذب عليها..

دست لمياء همها وسط الكلمات دون التصريح به، صدق من قال:

"كلٌ يُغنّي على ليلاه"

قلبت يمنى السؤال بشكل مفاجئ، قالت وما سبب خيانة المرأة لزوجها؟

ردت هديل ممسكة بزمام الموضوع:

- خيانتها رد فعل.

قلبها يئن فتُكمل بأسى خفي:

لا توجد على وجه الأرض امرأة تخون بلا سبب، ابحث عن الرجل، يمكن أن يكون مهملاً في حقها، عاجزًا جنسيًا أو باردًا، خائنًا يسمح لنفسه بأشياء تجرحها ولا يُبالي، بخيلاً، ماديًا، اجتماعيًا أو عاطفيًا.

تركت لمياء كل الرأي وتعلقت ببخله الاجتماعي قائلة:

ـ صدقت، الرجل البخيل اجتماعي يكون حملاً وديعًا مع كل معارفه ورفاقه، وعند زوجته وحش كاسر لا يهتم بتصرفاته وألفاظه، يُقلل من دورها في حياته، يبتسم لأنثى غيرها وهي بجواره، يساعد الجميع ومعها لا يتحمل الوقوف خمس دقائق، رجال مع الغير والأولى مع زوجاتهم...

استدركت رحيق بعيونٍ مشرعة:

اتسع الحوار منكن يا فتيات، أتخون المرأة؟

ردت يمنى بهستيرية ضحك:

من أين أتيت برحيق يا لمياء؟ وكأنها لا تعيش معنا خرجت للتو من القمقم..

لمياء تُخفي ضحكاتها:

لا تمزحي، كل ما في الأمر أنها من حفظة القرآن ومثالية إلى حدٍ ما..

ردت رحيق بخجل:

ـ آسفة أتحدث بصراحة وأقول ما يجول برأسي.

تتراجع يمنى:

ـ لا بأس كنتُ أمزح فقط، على العموم نعم، تخون المرأة ولا أجد مبررًا لخيانتها مهما حدث، يمكن أن تنفصل وترتبط بمن شاءت لكن لا تخون.

أركيدة تفكر بعمق:

ـ سبب الخيانة هو الضعف، المرأة القوية الحرة لا تخون، لا تفتح فخذيها تحت أي مسمى خارج إطار الزواج.

علّقت هديل:

ـ أنتِ قاسية جدًا وأسلوبك صريح بشكلٍ فادح.

تحاول أركيدة تلطيف الجو:

ـ إننا فتيات مثل بعض لذا لا أتجمل، إنها حقيقة نتحدّث عن فعل مشين لمَ لا يأخذ قدرة في التعبير! نتبادل بصراحة مطلقة ما يجول في أذهاننا..

غيّرتُ الموضوع بأمل:

- ما رأيكن في الحب؟
زفرت أنفاسها بتأٍي كمن يريد البوح بشيء ولكن الردود صادمة.
هديل:
- أجارك الله من هذا الشعور الماكر، مثل الثعلب يدور حول فريسته حتى تقع...
تأففت أركيدة من سلبية هديل فقالت:
"قبل أن يبدي أحدكم رأيه يجب أن تنسين أنكن متزوجات، أخذتن من الشهد رشفة، ومن البحار شربة ماء، ومن الأشواق قبلات."
قاطعتها يمنى:
- قصدك أبيح أم شريف؟
أركيدة بعفوية:
- شريف طبعًا، لا أعرف غيره لا زلتُ عزباء.
- إذًا سأجيبك بلغتكِ، الحب من أرقى المشاعر الإنسانية، يجعل للتكاثر مبررًا وللعلاقة الحميمية طعمًا...
اندفع الجميع بالضحكات النسائية ما عدا أركيدة ظلت سماءها ملبدة بالغيوم عاقدة الحاجبين...

قالت لمياء بلين:
- لا تحزني سأقول رأيًا يسعدكِ، الحب كلمة تحدث فيها الجميع، ولم يشعر بها سوى القليل، كتب فيها أغلب الشعراء ولم توفها كل القصائد، هي كلمة حرة بلا سلاسل تحدها أحرف وكلمات، تعبيرات أو علاقة جسدية، الحب أنواع أعمق وأشمل من الظاهر لنا.
تمتمت رحيق:
لا أعرف إجابة دقيقة، لم أجرّبه من قبل.
بحثت هديل في سرداب ماضيها فلم تجد سوى مجدي فشاركت:
- الحب هو شخص بسيط أحبني بصدق وتجاهلتُ مشاعره، عشق تفاصيلي التافهة، انتظر مني فرصة ليجعلني أميرة قلبه الوحيدة، أخلص لخيالات كنتُ سأفعلها واحتفظ بها، الحب هو الاهتمام والتقدير، العطاء..
سألت لمياء مباغتة:
- قولي الحق من هو؟

تراوغ أركيدة:

- من من؟

تغمز لمياء بشقاوة وتردد نفس الألفاظ:

- من من؟

تحوّل اللقاء إلى موجات ضحك، أصوات النساء كارثة عندما يضحكن تتساوى الراقصة مع المهندسة..

وكزتها يمنى بذراعها وهي تقول:

- اعترفي لن نخبره حتمًا.

تردد أركيدة قبل أن تصرّح ولكنها تشجّعت أخيرًا ونطقت به:

- الدكتور مجدي..

جحظت عينا هديل وهي تُكمل الاسم:

مجدي عبد الظاهر؟

- نعم، تعرفينه؟

- لا، أعني تجمعه علاقة سطحية بمسعد على ما أذكر.

ساد الصمت مع نهوض لمياء المفاجئ:

- لازمٌ أن أقوم، تركت حور مع شريف بعد خلاف طويل حول حقي في الخروج ولو ليومٍ واحد مع صديقاتي وها هو أخذت ساعتين راحة يكفي إلى اللقاء.

انطلقن جميعًا إلى أقدارهن..

- إلى اللقاء..

- وداعًا.

(١٠)
الصدمة
أركيدة

أراك باستمرار لم أعد أميز بين الحقيقة والخيال، أحيانًا أشعر وكأنك تبادلني نفس الاهتمام، نفس الحيرة، نفس الحلام، والكلام. تذكر آخر محاضرة عندما تطرق الحديث خارج المحاضرة التي تتحدث عن الصحة النفسية للمراهقين ودور الأوساط المتعددة تجاههم..

عندها سألتنا سؤالاً قلتُ مباغتًا:

ـ ما أسباب قوة المرأة، وهل هي ضعيفة كما يقولون أم إنها إشاعة مغرضة؟

تحدثت بابتسامة متحيزة: بدوت وكأنك نصير للمرأة ومؤيد لتضحياتها تعرف نقاط قوتها وجسارة المهام التي تؤديها. رفعت يدي عاليًا دون الموجودت في القاعة، وقعت عيناك على إصبعي تلقائيًا، لا ألبس خاتمًا، اطمئن...

هناك حالة انجذاب ثنائي الأطراف بيننا، وقفت بثقة فتجارب الحياة تأخذ من انطوائنا وغربتنا الكثير، تهبنا بدلاً عنهم، جرأة وجسارة وإصرار، قوة التعامل مع أي موقف، قلتُ برزانة:

ـ في البداية أشكر حضرتك على رحابة صدرك وتواضعك، ثانيًا المرأة قوية مع كل البشر سوى من تحب، تتحول أمامه إلى قطة بيضاء تنتظر يده الحانية كل مساء، كلماته العذبة بلا تحفّظات وكذلك عطاياه الثمينة بلا تقطير وحسابات.. شغفه واهتمامه بلا عناء، تريده واضحًا متفاهمًا غير متكلف.. إذا تصنّع البعض لكسب الحب فلن يدوم، الحب يحتاج العيوب، الحقيقة. لكي تحب وتستحق أن تكون شريك رحلة مليئة بالمفاجآت والصدمات لأحدهم.

خرجت من موضوع ودخلت في آخر لأنهما مرتبطين بشدة.. وربما عن نفسي أتحدث وليست كل الفتيات مثلي.

أمضي يوميًا بزي عسكري، خطوات مدروسة، نظرات محدودة.. أعرف وجهتي لأني وحيدة، إذا كان معي رجل حقيقي فسيتحول الأمر لأصبح أكثر حرية في ملابسي.. وأضع مكياجي على مهل.. السير كأنثى لا كموظف يؤدي عمله.. وعندما يغيب تغيب معه الليونة والرفاهية.. صفق الشباب على كلامي، أعجبهم بعض الشيء، أما صديقاتي

فانقسمن إلى مؤيدٍ لأنهن مرهفات لا يُفضّلن العناء والمعارضات يرفضن لأنهن جُبلن على تحمل المسؤولية ولا ينتظرن رجلاً يحميهن أو يساعدهن.. عيناك أكملت الحور، أسمعتني كلمات مبهمة خاصة عند قولك بصوت جاد:

- **الحب هبة الله لا يُهدى لكل خلقه، جميعنا يُمكن أن يحب ولكن توافق الإرادات صعب.**

انتهت المحاضرة.. بعد حصولي على الدبلومة توغّلت أكثر في علم النفس رأيت أنه مفيد وعميق يمكن أن أضيف له شيئًا فقررت استكمال الدراسة، ماجيستير وربما دكتوراه أيضًا.. تفرّق الجميع، ودّعت الرفيقات بهدوء، إشارات قصيرة، إيماءات بالعين.. بسمة خفيفة.. هكذا تنتهي اللقاءات العلمية مع المعيدات، قلة ضحكات الفتيات الطائشة أيام الجامعة أصبحنا الآن أكثر نضجًا للأسف..

برغم من إيماني بأن التفاهة أسلوب سعادة وليست أسلوب حياة إلا أن المكان لا يناسب ولا الأشخاص.. أتمنى ألا أظل وحيدة أبحث عن ضالة لن أجدها.. ذنب لن يغفر.. معاصي تنتظر التوبة ولا تحدث..

وضعت الدفتر خلف حقيبتي البيضاء، حملتهم في يدي، لا أفضل رفع الحقائب على ظهري، أسعى دائمًا لتبسيط الأمور وجعل الأدوات أساليب راحة لا معاناة. بنطالي الأزرق واسع يُخفي تفاصيل جسدي، فوقه بلوزة بيضاء وجاكيت أسود.. الموضة الحقيقة لا نتعلمها من شاشات عرض الأزياء ولكن من النظر على بعض، فحواء تتقن فن التملق..

تعرف كيف تفصص المرأة وإخراج محاسنها ومن ثم تقليدها بدقة. في وضع المكياج، الملابس والألوان والتصرفات، وربما الضحكة، يمكن أن تُستغل بشكل مخيف، كما أن التقليد عن الطفل بديهي هو عند النساء أمر اعتيادي، يحدث رغمًا عنكِ شئتِ أم أبيتِ الاعتراف إلا أنه واقع.. نسقت ألواني بشكلٍ سريع، رأيتها من قبل، عيناي تحفظ الدرجات المألوفة فلا أستغرق وقتًا طويلاً..

أعشق شراء الملابس والتزيّن، بيني وبين الجمال معاهدة، أشعر بالراحة مع التغيير والترتيب في مظهري..

جمال الوجه وحده لن يحقق الرضا للأنثى ولن أقول الداخلي لا هذا منحنى آخر أعني جمال المظهر الخارجي، الشياكة والأناقة.. أشياء تهبك الرضا عن الذات بنسبة كبيرة، قالت يمنى عندما رأتني أتبضع باستمرار:

ـ تصرُفين ببزخ، قضيتِ أكثر من عامين في شراء الملابس لو أنصفك العقل لكنتِ صاحبة سيارة تقلك الآن.

كانت عملية بما يكفي لتشعرني بالخيبة.. لكني لم أقتنع، سعادتي فيما أحب حتى ولو فيه عنائي.. حتمًا أحب الراحة ولكن لا أحب الحسابات وتفقد مشترياتي شهريًا والادخار..

أشعر وكأن الادخار عقدة..

أفعى تتحرك بداخل غرفتي تود التهامي.. مرض خطير مؤذٍ.. حالة نفسية سيئة لا تزول إلا مع الفلس والشعور باللاشيء.. دائمًا ما أدعو الله أن يهبني رجل كريم وحريص في نفس الوقت، كريم يعطيني دون سؤال وحريص يدخر لأولادنا في المستقبل ولا ينتظر مني رزانة أمه أو جدته..

حركة المرور منتظمة، لا تكدس في هذا الوقت، الساعة الحادية عشر جاء الأتوبيس الأزرق، حتى في المواصلات أتعامل بعواطفي وما ينسجم معي، لن يصدقني أحد إذا قلت أني ضيعت الأتوبيس السابق لأنه لم يعجبني، لونه فاضح... لا يخفي سرًا... فقط كان أحمر جديدًا يعتقد أنه لا يُفوّت...

أعاند نفسي.. أتسلى.. أنتظر شيئًا.. سمِّها ما يحلو لك هذه أنا وهذه حياتي.. أفعل ما يحلو لي. صعدت من الباب الثاني، الأهدى والأبعد.. أفضّل النهايات دائمًا.. أنزوي بشكل خفي... أريد التعايش مع الناس، أذوب في تفاصيلهم دون أن يروني.. الشعبية مكسب.. أن تصبحي فتاة عادية نعمة من الله..

لا يسعدني نظرات المعجبين أصحاب البطون المنتفخة والشفاه الغليظة.. أمقُت تعبيراتهم، تعليقاتهم ورائحة التبغ المنبعثة من أفواههم، وأحيانًا أشفق عليهم، على حالهم وقلة ثقافتهم... التقدم الغربي لا يمثل إنجازًا بالأماكن ولا بالاقتصاد كما يعتقد البعض، الإنجاز الحقيقي هو الإنسان، الروح والعاطفة والجسد الذي يشعر، العقل الذي يفكر، السلوك الذي يؤثر، نمط الحياة الراقي، احترام الحقوق والحريات، أتساءل متى سنصل إلى السلام الاجتماعي الحقيقي وليس المؤقت!

سلام يجعل القلوب شفافة ترى بيضاها من بعيد، نور الوجوه السمحة، التعايش بالمعروف، نحن خير أمة لمَ لا نحترم كياننا، نغض البصر كما أمرنا لا نُطلق سهامه لتخترق تفاصيل الأجساد.. ألا تشبع ممارسة العلاقات رغبتكم؟

لمَ تزيغ الأعين فتراشق الأبرياء، أنظر باستحياء لكل الناس وربما أعرض عن رؤيتهم لا داعي.. أتمنى أن أعامل بمثل ثقافتي وفكري، لا أريد مدحًا ولا ذمًا، لست أنت من يهمني لتهبني كلماتك الخارقة أمثال قمر أو جميلة، جامدة، شديدة.. لم أكن يومًا عنيفة ولا أبحث عن السلبيات ولكن شعوري الوحيد تجاه هذه الشخصيات هو اقتلاع أعينهم لفترة ثم إعادتها لهم..

عندها سيعرف إلى أين يوجّه عينيه، كي يحفظ عليه نعمة البصر ولا يعيش أعمى معاقب بقية حياته..

لا أجلس بجوار النافذة كالمعتاد، أجلس على المقعد المجاور، تركته خالٍ، لا يُفرض على من يجلس ولكني أختار من يناسبني، نعم، حتى في العادات اليومية، لست امرأة صعبة أقسم لك، كل ما في الأمر أني منظمة ولا أترك نفسي في مهب رحمة المجتمع، الحياة بدونك قاسية يا عزيزي...

- تسمحي لي!

وقعت عيناي على حذائه الأسود وبنطاله الرمادي ثم ارتفعتُ بمقلتَيّ متمنية أن يكون هو.. وقد كان!

بذته البيضاء مختلفة، يرتدي ما يُناسبه فيليق عليه، قلتُ متمتمة ومن غيره يفعلها؟ انسحبت برفق تاركةً له المقعد كما طلب، انحزتُ بأريحية نحو النافذة وكأني أوليه عرش قلبي لا مقعد عابر في الحافلة...

تسيد الصمت لحظات، عيناي تراقب المارة وعيناه تراقبني، قلت وقال وكلانا متلجلج...

سكتنا ثانية قال بعمق فلسفي:

- إلى أين تريدين الوصول؟

- إلى عينيك، لا لن أقول ذلك، كُفّي حماقة، اهدئي، لا أصدق الدكتور مجدي بكامل حضوره يجلس جواري..

رائحته الياسمينية جذابة، تشدني من رقبتي بهدوء وانسيابية، يختفي الركاب وجهًا تلو الآخر، يلغهم عقلي ولا يرد، انتبهت لتأخري فقلتُ بثقل:

- إلى بين السرايات، وأنت؟

- لا يهم.

- كما تحب.

- لا أقصد لا يهم أن تعرفي؟

- إذًا ماذا؟

-لا يهم المكان ما دام معكِ.

ابتسمتُ بتعجب، هكذا بدون مقدمات، يبدو أنه واقع فيّ، قلت مسترسلة:

- حقًا ستذهب إلى بين السرايات؟

- لا.

عاد يماطلني وتتقهقر رومانسيته من جديد، إذا لم ينطق سأخطفه وأنهي معاناتي.. من أول لقاء علمت أنه نصيبي، فارس أوراقي المجهول، رائحته وحضوره الجذاب، طريقته، تخبرني به دون أن يدري:

- إلى أين إذًا؟

- سنتوه معًا، ما رأيك أن نضيع؟ أعشق الأماكن الجديدة، دعي الحافلة تمضي في طريقها إلى آخر محطة وعندها تكون البداية..

اعترضت:

- لكن...

قاطعني بحلم:

- بدون لكن، جربي، انظري إلى طريق غير طريقك، تناولي غداءك في مطعم غير المعتاد.

- حضرتك متعود على الضياع؟

- الحقيقة أم الكذب؟

- الكذب طبعًا.

اتسعت عيناه من الإجابة، استدركت ضاحكة لأجل النظرة السابقة:

- قل الحقيقة.

- هذه أول مرة.

- ولمَ قررت الآن؟

- الحقيقة أم الكذب؟

ـ ثانيةً! لا سأقول الحقيقة، أصبحنا في مرحلة لا تسمح بالكذب والاستهتار، أنا ضائع منذ أن تعمّقت في عينيكِ السوداء.

ها هو يعترف، رفعتُ عينيّ إلى عينيه قليلاً ثم أخفضتها، أُخفي سعادتي بصراحته وذوقه فقلتُ بخجل:

ـ أنا معك، موافقة على الضياع ما دمت بجانبي.

مدّ يده بيننا بتردد، قابلتها بنفس الشعور، تردد مصحوب بفرحة يساورها القلق وأمنيات كثيرة.

****

يمنى

الفناء، كلمة مستعصية التصديق، لا تؤمن بها ما دمت حيًا بكامل سعادتك، ليته فقط الانتهاء لاطمأن قلبي، لكنه فناء يعقبه إزالة واختفاء فلا تعبث مع الأيام، تفتح صدرك للأحلام، تصدق معسول الكلام، تأخذ وعوده محض اهتمام، تغمض عينيك كل مساء بهيام تنتظر بزوغ شمس الغد لترى وجهه البسام، مهما حاولت إنك ذاهب لا محالة والذكرى أبدًا لا تذوب، تركته بكل صلابة، رفضت حبه ببلادة فرضها على فقري وطموحي، صرح لأول مرة بمشاعره، قالها منذ أول لقاء، وعدني بأفعاله وصدقه، كثيرًا ما دعمني وعندما توغّل في بحر الحب غادرته إلى البر مسرعة، أخذت أقرّب قارب نجاة وفررت، لا أبالي بمصيره، كنت أنانية بعض الشيء، أسير في نفس الطريق، أتنفس ذات الهواء، أستمع إلى ذات الأغاني، أعيش في محافظة لا يوجد فيها صديق، قلب مخلص يدعمني، لم أرد استغلال مشاعره أكثر من ذلك قلتها بصراحة:

ـ لن أستطيع حبك بالطريقة التي تريدها، أنت رفيق جيد، شريك حياة مناسب لأي فتاة غيري.

ـ تعنين ما تقولينه بملء فيهك؟

ـ نعم.

ـ لكننا متشابهان جدًا أرواحنا متآلفة، بيننا رابط قوي يجمعنا رغمًا عنا.

ـ تشابهنا سيكون سبب فرقتنا ولن يُجمعنا كما تعتقد، فقرنا كافٍ لاختيار الفراق.

ـ الحب يقوّي لا يُضعف.

ـ ما تقوله شعارات وهمية لا تطعم خبزًا.

طأطأ رأسه بحزنٍ فأكملت سقطت كلماتي كالمطرقة فوق جمجمت الضئيلة:

- لا حاجة لمزيد من التعاسة والشقاء، الأحلام لا تُبنى بمعاناة إذا أمكنني كسبها بجمالي كأنثى بشهادتي أو طموحي أنت كيف سيتغير وضعك؟

نظر إلى السماء فجأة يُجاهد كي يستقيم، لا أدري يبثها حزنه، أم يدعو الله، ربما يثق بقدره وما تُخبّئه له الأيام..

تفوّه بكلمات متماسكة:

- لن أفرض الحب عليك، نحن صديقان قبل أن يدخل الحب بيننا

جمع مشاعره المتعثرة ورغباته المهزومة، آماله المكسورة على أعتاب الواقع، شعر أنه يطرق بابًا صدئًا لا يملك مفتاحه، رحل دون استجداء، نظراته مفعمة بالصبر الثمين..

لا أدري أقول تركته أم تركني؟ لا أعلم من منا خسر الآخر؟

مَن آنس وحدة من وأسعد أوقات الآخر؟

لا أنسى يوم مواجهتي له، حادثته صباح اليوم التالي لمكالمة ريم، طلبت رؤيته فورًا، فقال:

- هذا وقت العمل، يمكن تأجيل الموعد بعد الخامسة؟

- لا، ضروري تحضر.

أستأذن من مديره بحجة كاذبة وأتى يتراقص من فرط سعادته.

ترتسم القلوب الحمراء على مقلتيه، يلقي التحية بيده على من يعرفه ومن لا يعرفه، يحاول إهداء حظه العاثر لهم وهو لا يدري، سأدمر قصر غروره ريثما يصل:

- صباح السعادة.

قالها بابتسامة واسعة وحاجب مرتفع مثل معنوياته:

- صباح الخير.

قال باهتمام:

-كيف أنت؟

-لا داعي لتتوغل في حالي وانشغل بحالك.

تغير لون وجهه، هدأت ثورته العاطفية وقال متداركًا ما فرط من نشاطه:

- حالي جيد أحمد الله عليه.

- إذًا كيف حال الأسطى عثمان؟

قلتها واضعة كلتا يداي تحت إبطي كمعلمة تعاقب تلميذها على درجاته المخيّبة للآمال، أحادثه من برجي العاجي، أقف على أموال أبي وتجارته، عيناي لامعة، وقفتي ثابتة، أنتظر سقوط غروره واعترافه بحقيقته قال مباغتًا لتوقعاتي:

-ليس أقل حالاً من العم عبد الستار وتجارة الترمس!

تخلصت من عقدة يداي على مهل.

تمتمت:

- نعم، إنه يتاجر في الترمس أيضًا...

- استمري، استمري..

قالها وهو يدور بإصبعه كمن يحرّك كُرة، جحظت عيناي في مكانها، كدتُ أوحل بذات الحفرة التي نصبتها له، قلتُ كاشفةً القناع عن وجهي:

- أصبحنا متعادلان، كذبة مقابل كذبة. تبادلنا الضحكات، أشرقت الشمس على سمائنا من جديد، وهبنا القدر بعض الوقت لنعيشه معًا، صفق بيده على كف يدي معلنًا بداية عهد لصراحتنا وتقبلنا التام لشخصيات بعض الحقيقية دون تزييف ولا تجمّل...

مر عامان تغير فيهما أشياء كثيرة، لم يعد الزمن مسالمًا، يهبنا السعادة والبساطة، أصبح أكثر حدة وجشعًا، أكملت دراستي وعينت بفضل الله وفضل دعوات أبي معيدة في الجامعة، إنه لأمر شاق ومُشرف في نفس الوقت...

زادت الفجوة بيني وبين عمرو خاصةً بعد نجاح مشروعي وانهيال العروض حول ضمه لشركة تصنيع شهيرة، عندها قررت التراجع عن صداقته الوهمية، التي لم تكن أبدًا صداقة...

إنها حب معنون بعنوان تمويهي غير قادر على الاعتراف، كنت فارسي ولكنك لا تملك جوادًا، المعركة دايرة تحتاج القوة والمال وبحالتك لن تستطيع الصمود أكثر، بُحت بكل هواجسي قال بأسى:

- إذا كان والدي المهندس رفعت لكنتِ معي الآن؟

- ربما.

- تجيبينني بكل وقاحة!

- تقصد صراحة.. لمَ أتجمل أمام حب معدم كتب عليه الانتهاء قبل أن يبدأ.

- لو أحببتني ما فكرتِ بالمال أبدًا...

ـالمال ليس سيئًا كما تُفكّر، إنه تفكير الفقراء أمثالك يجعلك ترى الحياة بعيدة عن السيارات، القصور والملابس الماركات والشهرة والاحترام ـ لحظة، تقولين الاحترام أو تشترينه بأموالك؟

ـ نعم، نحن في زمن الجنيه، من يملك قرشًا يساوي قرشًا لا تتعجب.

ـ خسارة، لا بكاء عليك ولا ندم.

خطى ثلاث خطوات ثم أعاد وجهه قائلاً بوجهٍ مُكفهر وصوتٍ حازم:

ـ أعدكِ بأن أختفي من حياتك، استطعتِ ببراعتك سلبي طاقتي وحبي للقاهرة، عندما التقيتكِ رأيتها بك حبيبتي والآن وبعد انفصالنا لفظتني بقوة وأغلقت في وجهي أبوابها.

حزم متعلقاته ثم رحل، تركني أتجوّل كحيوانٍ ضال فقد أمه ولا يعرف بحضن مَن سيحتمي.. تتوالى الأيام ولا فرق بينهم، أي يوم نحن لا أدري؟

كلما رن الهاتف توقعته هو... دائمًا ما تترك المرأة وتنتظر عودتك، تعاملك وكأنك دميتها، أباجورة في حوزتها، لا تعلم أنك قلب كبير، إذا وهب بحق لن يعوّض..

كرامتك كسكين على رقبتك.. عزة نفس عالية تنافس برج القاهرة... شامخ لن تريها دمعتك.. تؤثر دائمًا الوجع وحيدًا... البكاء ليلاً عندما يتفرق الخلق من حولك، يذهب أصدقاؤك المسامرون إلى بيوتهم بعدها تقرر نزع قناعك الخاوي، تهبط رقبتك فتلامس قلبك. تجد المجروحين في حزنهم يعمهون، يسيرون بتقزم، محورهم الصمت والنظرات العميقة، عيونهم ناطقة، هناك ثقب لا يندمل يظل هكذا مدى الحياة، لا يملكون إيقافه فقط تجاهله بعض اللحظات ليعيشوا مثلكم.

حمل حقائبه فلم تثقله، الثقل الحقيقي في نفسه لا على ظهره، صوت القطار يصيح، يسمعه نداء أخير، يقول بصوت مرتفع على مسمع الجميع: يمنى، حبيبتي.. لا يودعها ولكنه يحثها على التراجع لا يملك هو حق الرجوع لأنه لم يطلبه، هي صاحبته، أعلنت تخليها عنه.. لم يجد القطار بدًا من الانتظار، دفعته الأرصفة إلى طريقه، توغّل في قضبانه بحرص شديد. مع اول حركة للموتور عضّ عمرو على دلاية صغيرة يحملها يقولون إنها تُخفف حدة التوتر، قضمها بعنف، وهبها وجعه، مزقها لتعلم كيف هو من الداخل!

عمرو عندما يكتب..

مضى الوقت لا أعلم مقداره، فقدت الزمن ذات خلاف، الهيام أمر ممكن، لا مستحيل كما خُيّل لي عندما قرأت روايات المجنون، قيس وليلى، جميل وبثينة، عنتر وعبلة.

"الحب ماس كهربائي قادر على صعق عقولنا فيجعلنا بُلهاء نفقد كل شيء بعيون مُشرعة وآذان واعية وبتقبلٍ تام..."

دلفت إلى غرفتي مباشرةً، تقف أمي على الباب تنتظر ضحكاتي، مزاحي معها، حفلتي في طرق الباب، صوتي النشاز عندما أُغنّي لها: ماما يا ماما يا ماما..

لا شيء عندي فلا تنتظري، عمرو القديم مفرغ من روحه..

- عمرو، ماذا بك؟

- لا شيء.

- ليس على أمك. قل ولن أخذلك كما عهدتني.

ارتميت في أحضانها، المكان الضيق الأكثر براحًا في الدنيا، ملأته بهمومي عندما ربتت على ظهري قائلة بطمأنينة:

-يمنى السبب؟

أجهشت بالبكاء كاشفًا عن وجعي:

- نعم، انفصلنا، في اليوم الذي قررت فيه الارتباط الرسمي، سبقتني لتنهي علاقتنا.

- لمَ، أين ستجد أفضل منك؟

-أمي لا تقولي كلمات هي بالفعل بعيدة عني، لستُ أكثر من موظف بسيط ابن سائق، قلتها دون قصد:

لو كنت ابن المهندس رفعت لقبلتني... استدرتُ نحو المكتب، دفعت كل كتبي على الأرض، لم يشفع لي تعليمي وثقافتي وأخلاقي معها، أصيح بهستريا: أرجوكِ دعيني بمفردي.

- لا، لن أدعكِ.

- أرجوك.

أمسكتها من ذراعها، أسحبها برفقٍ للخارج، أغلقتُ الباب وعدتُ إلى خيبتي، الإنسانة الوحيدة التي تمنيتها تخلّت عني لأسباب واهية، لا.. حقيقية أنا فاشل وبلا هوية، إنسان عادي لا املك أي ميزة، طرقات مستمرة على الباب، جاء صوتها مبحوح:

- عزيزي افتح الباب، لستَ فقيرًا صدقني.

انتبهت من ثورتي صاغي السمع فقالت بوجل:

- لم تكذب على يمنى بكونك ابن رفعت...

- أنا بائس أنـــــــــ..... ماذا؟

ابن من؟

فرت الكلمات من جوفي الذي جفّ فجأة، أهي تهزي أم تقول الحقيقة، فتحت الباب بسرعة ثم قلتُ بصوت هادئ، أخشى تسرب حرفًا منه:

- ماذا قلت؟

- الحقيقة، أنت ابن المهندس رفعت الحاوي، ولست ابن السائق المسكين الذي لا يُعجبك؟

- هذا مشهد من فيلم قديم، أم تهمه تريدي لصقها برجل صالح، يعاملني كابنه الذي لم يلده، لمَ تريدين تشويه سمعته وحيرة أمري؟

- لا تدافع عنه.

تقولها بصرخة واضعةً يدها على فمها تحبس الكلمات من التحرر فقلت مذهولاً:

-كيف؟

انطقي..

- سأقول لك كل شيء... اجلس أولاً وعدني وعدًا.

- تحدثي يا أمي أرجوكِ، لا صبر لدي للكلمات الفرعية...

- عدني ألا تقول لأحد بدون إذني.

- أعدكِ... إذا كان الأمر يحتمل.

****

لمياء

الجو هادئ وقت الغروب، أجلس في شرفة منزلي وحيدة، حور تغوص في نومٍ عميق، زوجي العزيز لا زال بالخارج، أمكث بعض الوقت مع نفسي، لها حق كبير لكني أقصر دائمًا معها..

لطالما آمنت أنه يجب أن تلتقي بذاتك، تُحادثها تلبّي رغباتها المشروعة من حين إلى آخر، تحتضنها، تُشبع نهمها العاطفي، تلامس قلبك لتطمئن أنه ينبض ولم ينتهِ به

المطاف صريع روتين يومي ممل، استمتع بروحك الجميلة، ارتق معها بلا خجل، استمع إلى أغنيتك المفضّلة مع كوب الشاي، القهوة، العصير، أيما تفضّل أنت حر في اختيارك، يكفي أن تختار..

ابحث عن مكانك المفضل، تلك الزاوية المريحة التي سجلت عليها اسمك، تعرف أين تكون؟

وضعت فنجان القهوة على الطاولة، لونه أبيض رفيع من الأسفل منفرج من الأعلى، أجلته لا تفقد نباتاتي، مشروعي الكبير تقلّص مع الأيام والزواج لينحصر هنا في قارعة شرفتي...

لا بأس المهم أن حلمي في الزراعة لم يمت وظلت آثاره حاضرة، أمتلك أنواع كثيرة من الزهور الأصيص الأزرق به الورد الجوري، سيد الزهور، البلدي وقوته، يحمل الأصيص الأحمر زهر الياسمين الأبيض. اختليت بأصيصين بهما زهر الليلك إحداهما حمراء والأخرى بنفسجية اللون، حديقتي فرحتي، هنا أحيا بصدق لا كما يعتقد شريف... طموحي سر استمراريتي في العيش..

إذا أراد أحد سلبه مني فقد سلب الحياة من عينيّ دون أن يدري... لكلٍ منا هدف يحيا لأجله ومجموعة أهداف مسايرة للحياة، إياك ثم إياك أن تقتل أحدهم دون أن تعلم...

انتبه لعينيه، تعبيراته، سعادته عندما يتكلم عن هدفه الأول، الدراسة، البحث، السفر، العمل، التجارة، فلتكن ما تكون لا ضير أن تنازلنا بعض الشيء ووهبنا من نحب روحه بلا تدخّل..

ألقيتُ التحية عليهم، أمسكتُ بفنجاني مرة ثانية ثم جلستُ أرتشفه مع الماضي، أصبح حاضري غث، كالطعام البائت خارج الثلاجة... تناولت الرشفة الأولى على مهلٍ فحلّت ذكريات تلك الليلة مع نسمات الهواء البارد، أتذكر؟

حتمًا لا، أنا من تذكر ولا تنسى.

المرأة كمبيوتر معلومات، مجلّة متنوعة الموضوعات تجد بداخلها كل المشاعر والرغبات ولكنها تملك وبجدارة توظيف الملفات.

أذكّرك يا قدري بيوم الرابع من شهر ديسمبر الماضي الذكرى ليست ببعيدة مضى عليها شهر ونصف، ارتديت قميصك الأسود فانتابتك عدوى كآبته، سرت في عينيك عندما لمحته، قبل أن تنطق جاء اسمع رأي حواء..

وضعته على جسدي الناعم، سبحت حواسي في رائحتك الذكية، أنفاسك المختلجة بخيوطه، ضحكاتك، همساتك، كل تصرفاتك، أحببته لأنني أحبكِ، أتودد إليك بكل الطرق فقط لا كما نعتني بتحجر قائلاً:

"أراكِ وضعتِ قميصي، تريدين أن تصبحي رجلاً بأي شكل.."

- هذا ما هُديت له؟ عقلك الكامل أعطاك نتيجة كاذبة غير حقيقية، أين قلبك من ترهاته؟

أين حبك يا شريف؟

جئتك بنفس مقبلة، روح طفولية مستبشرة، أفكار سعيدة متعددة، تحسستُ بيدي مواضع أنوثتي لأريك كيف يبدو نصفك النسائي في ملابسك، لكنك عُميت، صب على بصرك غشاوة مفاجئة، حطمت إقبالي بكلمة واحدة ثم أمسكت بتوأم روحك المرافق لك دائمًا، هاتفك، احتضنته وأعطيتني ظهرك العريض غير مبالٍ بما صنعت.

الرشفة الثانية..

أقبلت بعاداتك المستحدثة في النوم، تنام حور في غرفتها منذ إتمامها العام الثاني، عدت إليك بعد غياب طويل مرغمة عليه، للطفل بعض الحقوق المرهقة يجب أن يتحمّلها الطرفين، بدأتُ أستقر من تجربتي الجديدة، جئتُ إليك مفعمة بالحياة، الذكريات الجميلة العالقة بذهني، افتقدتُ مكاني على صدرك كثيرًا، تفاصيلك تؤرّقني كل مساء، ملمس ذقنك الناعم يُغريني على ممارسة الحب، يجذبني سهوًا فأضع شفتيّ على خدّك مدعية البراءة وأنا وجهتي فمك، قصر الملذات، بئر الشهد الثمين، كلما زاد حبك كلما اشتعلت رغبتك، تأججت دون إنذار، أقترب منك على مضض، أتوقع مدى استجابتك، ربما قبلة على جبيني، أو ربتة عابرة على كتفي، سلوكيات لا أعلم تفسيرها.

في حياتك أنثى غيري، صدر يضمك كل مساء، مخدع سري تضاجع فيه إحداهن، أم زقاق تنزوي به مثل الحيوانات!

وددتُ لو أصرخ بأعلى صوتٍ ليوقظك من ثباتك المخيف، أسرار دقيقة تملأ صدور النساء ولا يستطعن البوح بها الأفكار تتناولني كل مساء، تنهشني كوحشٍ كاسر بلا رحمة، إذا كان الوضع مغايرًا فصدقني لن يتحمل الرجل برودة المرأة لشهر مثلما تحملتك أنا عامًا، أستيقظ بين الحين والآخر ألقي بنظرة غاضبة فأجدك تحتضن وسادتك، تقبض عليها بنهم، منظر يدميني ولا تشعر، تنام وتنام بعمقٍ طويل، وأنا ورفيقتي الحيرة متلازمان، أنظر في المرآة، أتفحص وجهي، عيناي الواسعة، رموشها كثيفة، بُنّية

اللون، أنفي مدببة تُزيّن ملامحي بسلام، فمي صغير كحبة كرز حمراء، لا شيء يُنافر في خلقتي، أنحدر بيدَيّ على صدري فأجده شامخًا في عزة وبهاء لا زال في مكمنه لم تتغير ملامحه بفعل الأيام، خصري المشدود يتساءل لمَ؟

لن ألجئ الأمر لذكورتك ولا لعيبٍ فيّ، حتمًا هناك أمر غامض لا أعرفه، مشاكل تخفيها عني، وربما أنثى جديدة تحمل وجهًا لم تعتد عليه بعد، تفاصيل مثيرة تحلم بها، حياة تتمناها وتنتظرها، الألم يعتصر قلبي عندما أجنح بخيالي إلى هذا التفكير، لكنه واقع يجب التأقلم معه، شريف يمكن أن يهوى غير لمياء...

من اليوم لا من هذه اللحظة سأتدبر أمري، أبحث عن حياة تناسبني ولن أصبح طرفًا ثالثًا أبدًا...

وحدك لي وإلا فلا تلزمني. كلماتك، همساتك، غمراتك، أنفاسك الداخلة إلى صدرك لأجلي فقط، إذا حلمت بغيري فاذهب إليها دون الماضي، ولا تدع لي أي ذكرى يكفي فراقك..

تناولت الرشفة الثالثة.

حل معها ذكريات متكررة، خيبة تتوالى فأصبحت خيابات متجمعة، تذكرت ليلة أمس عندما قررتُ الرقص، فتحتُ الهاتف على معزوفة رقص شرقي مرتدية منامة مثيرة ثم بدأتُ أتمايل، أرفع ساقي اليمنى مؤدّية بخصري يمينًا ويسارًا ثم العكس، أُحرّك ذراعي للأعلى ثم صدري قليلاً لأعود إلى خصري من جديد، سمعت صوتك يهمس بلطف، شعرتُ أنك تهتم، تتابعني بعينيك،

قلت بسماحة:

- أين هاتفي؟

استدرتُ بوجهي بعيدًا متابعةً الرقص، زاد تجاهلك من شهيتي على الاستمرار، أصبحت أرقص لأبكي، أتخفى من وجعي، قلة حيلتي وفقدان صبري، زوجي لا يبالي مثلما تقول صديقاتي:

- مسعد فظيع يعرف أدق تفاصيلي.

- أحمد يحب الرقص جدًا، يطلبه دائمًا.

- يهتم عمر بشعري يعرف متى صبغته وأي تغيير يلاحظه.

- ما يمضي شهر إلا ويُحضر عامر لي هدية مميزة تعبير عن حبه..

وغيرهم لا أعلم أهي خدع نسائية أم أنهن يمتلكن رجالاً حقيقية يعرفن كيف يتعاملوا مع طبيعة زوجاتهم..

في نهاية الليلة الراقصة اختلى شريف بنفسه في حجرة الأطفال وتركني أهذي في ساحة المنزل..

وضعت الفنجان من يدي، لا حاجة لإكمال ذكرياتي الموجعة، تفاصيل دقيقة تتسلى بروحي وتنهك جسدي، يُلقي بها في صحراء واسعة غير مكترث لما يزرع، تصرفاته أشواك تخترقني، أصعب من نبات السعد، تلوّحني بنيران من الحيرة، أين ذهب حبه؟

لم أتغير ولو لحظة فما باله هو!

صوت أقدامه على الدرج، وكأنه يسير على قلبي بخطى وئيدة أحبه حب التفاصيل، أراه قبل أن يصل، أشعر بأنفاسه حولي، فتح الباب بهدوء ولج الممر الضيق ينادي:

- لمياء عزيزتي.

تسمعه أذناي ولا أنطق، أحتاج إلى مزيدٍ من العطاء لينال غفراني، أنتظر اللهفة والعناء في الوصول، قال عندما وجدني:

- تعالي نغير جوًا، عازمك على الغداء؟

ها قد شعر أخيرًا بحالتي، وافقتُ على الفور، كنت سهلة المنال... قلتُ بلا تردد:

-موافقة لكن حور أين سنتركها؟

- مع أمي لا تقلقي.

- وهو كذلك.

- سوف أنتظرك في السيارة لا تتأخري.

- تمام.

ارتديت ملابسي بسرعة البرق، بنطال جينز ثلجي اللون وقميص نسائي أبيض برابطة عنق حول الرقبة، "بلوروه" صغير أخضر وطرحة مشجرة، قاعدة الفتيات، «إذا كانت الملابس سادة بسيطة يصبح الحجاب مشجرًا بمعنى به دوائر، رسومات، زهور وهكذا، وإذا كانت الملابس مزينة بها أي تطريز تكون الطرحة سادة لا يوجد حاجة لمزيدٍ من البهرجة»

وصلنا يتقدم شريف نحو المطعم الذي يرتاده دائما ولم يسألني ماذا تطلبين؟

شعرت وكأني أتابع أصم عليه تقبل الأمور كما تجري.

موقف صادم لأصحاب العقول، يعتقد أني لعبته، يسير كما يرغب وقتما رغب إلى أينما رغب، يصرف أمواله ببزخ على ما يرتأيه مناسبًا للكل من حوله وفي نهاية اليوم يصيح بفخر: أسعدتكم، فعلتُ كل شيء لأجلكم، أنفقت مبلغ كذا في نزهة واحدة..

لا، في الحقيقة لم أكن سعيدة. السعيد هو أنت، من يحب البيتزا هو أنت، من يشرب البيبسي هو أنت لستُ أنا.

لا تمتعض إنها رغباتك المكبوتة حُررت اليوم، كثيرًا ما سِرت خلفك لأجلكِ الآن، لن أفعل. قلتُ مقاطعةً أفكاره:

- شريف لا تطلب لي بيتزا.

- لمَ؟

- لأنك دائمًا ما تعزمني عليها، مللتُ التكرار، جدّد أرجوك.

- ماذا أذا؟

- أحب الكشري.

- وأنا لا أحبه.

- كما تريد، يمكن أن يذهب كل منا لتحقيق ما يريده بمنتهى البساطة، زواجنا لن ينقص إذا دخلتُ أنا مطعم الكشري وأنت البيتزا، أعطني مساحة من الحرية والاختيار، نلتقي عند السيارة، فكر للحظات ثم قال بتململ:

- موافق.

تنفّست بعمق بعد مغادرته، برغم السعادة التي تتحقق بوجودنا سويًا إلا أني الآن أسعد.. يكفي أوقات تمنحها لإرضاء غيرك إذا كان بإمكانكما السعادة الحقيقية لما لا؟ نجلب الطعام المختلف لنأكله سويًا.

طلبت الطعام، انتهى البائع من إعداده سريعًا، برغم من شعبيته إلا أن المطعم منظّم بطريقة تُيسّر تنفيذ المطلوب في أقل وقت، تأخر شريف، ذهبت إلى مطعم البيتزا، أبحث عن قميصه البني بين الواقفين لم أجده، سمعت صوتًا يُجري حوارًا حول زوجته، انتبهت للمتحدث إنه هو وبرفقته أميرة..

تراجعت للوراء لا أريد مقابلتها.

استمعت لحديثه معها قالت بدلال مقيت:

-كيف حالك؟

عند النساء تقصد أخبرني كيف تسير أمورك من دوني..

رد بوسطية قائلاً:

- الحمد لله، أعيش.

قالها بنبرة مسايرة لقدره، تشعر بها المرأة، كلمة تفتح بابًا للحديث، تُعطي أملاً بعوارض مستقبلية مرضية لها..

- وأنتِ؟

- زوجي طيب لكنه عصبي جدًا.

تمتمت مستهزئة:

- ماذا سيفعل لكِ إذا كان به ذات العيب؟

كقطة جريحة في شارع مزدحم ترعبها أصوات السيارات، وتغزعها ملامسة المارة تبحث عن حائط تنزوي به ينقذها من الضياع...

جاء رده أخيرًا:

- لا أحد كامل.

زوجي المحترم عاقل، بدا وكأنه أخصائي نفسي لحل مشاكل الأسرة، يتناول طعامه بتؤدة غير مكترث بي.. سألت بدورها الفضولي عني قائلة:

زوجتك معك؟

- نعم.

- أين؟

- تركتُ لها مفتاح السيارة ثم اختفت متعللة بالتسوّق، تحتاج للشراء كعادة النساء.

أحادث نفسي بصمت لا أعلم من جز لساني وقتها، تداعى بنياني أمام عيني وجمدتُ أشاهد بلا حراك تفوّهت الثانية قائلة:

- جيد.

ابتسم ولم يجبها، أكمل قضم البيتزا المائعة مثلهما، تركت الطعام على باب المطعم وغادرت إلى هنا وتوقف قلبي عن العطاء شعرتُ أنني يجب أن أمضي دون الالتفات خلفي ..

نظر شريف لحقيبة الطعام بعد فروغه من ازدراد وجبته، علم أن زوجته جاءت إلى هنا، جذبته فتاته من شروده حين قالت:

- أحتاج لكوب عصير طازج.

رمقها بعيون حائرة، عقله يحمّلها تبعية ما حدث، جال المكان بحثًا عنها يعتقد أنها لا زالت تحوم حوله كالفراشة، تعشق الضوء وتظل عالقة به، صُعق عندما تبيّن العدم وقف مهزوزًا لا يصدق أنها رحلت بصدق هذه المرة، لطالما خالجه ذاك الإحساس بالذنب تجاهها لكنه تمادى ولم يستوعبها، الآن وقع في مأزق نفاد صبرها. يتساءل كيف سأعود لطفلتنا بدون أمها!

ماذا سيقول الناس عنا؟

يا ألله، لمياء اظهري رجاءً وأعطنا فرصةً ثانية لتصحيح المسار...

(١١)
حفرة الموت

زادت حدة الألوان أكثر، وضحت معالمها، استمع لأغنياتي المفضلة، اليوم خلق لماريا وحدها، عزمتُ أمري على موت رحيق، اختارت الانفصال والبعد عني، أخلت بكذبتنا القديمة، تريد الغناء باسمها، إنها مجنونة لا تفكر..
وضعتُ مريال المطبخ على خصري ثم قيدتها حول رقبتي، أحضرت علبة شوكولاتة فاخرة من نوع خاص تمتاز بالنعومة، أشعلت أسفلها نيران الحقد وثورة الغضب، بدت مشاعري الحانقة أشد وعورة من لهيب الموقد، تتسع عيناي دون وعي، سيطر فكر شيطاني على جسدي، أمضي بأطرافي حيث تؤمر، سبق السيف العازل، أمسكت بزجاجة السم قائلة بطنين:

"نقطة واحدة قادرة على تمزيق أمعائك إلى أشلاء ولن يراكِ غيري، خارجك معافى داخلك يحترق."
وضعت ثلاث نقاط، لم تُشفِ غليلي قطرة واحدة، وددتُ لو أسقها إياه دفعة واحدة، فتسقط هامدة بلا صوت يفضحني إذا سمع..
امتزجت المكونات في خليط لا يمكن كشف، صببتها في أواني مكعبة تستخدم للشوكولاتة فقط، أعدتُ ترتيب المكعبات بشكلٍ متقن، غلفتها بورق فخمٍ يُناسب مهمتها العظيمة، وضعتها على الطاولة المقابلة للمطبخ تتوسط ساحة الدور الأرضي، صعدتُ إلى غرفة الملابس، لا شيء يناسبني اليوم، قلبت الدولاب قطعة قطعة، وقعتُ عيناي على فستان أحمر قصير، لونه روى عطشي للدماء، ارتديته مغيبة، الانتقام يجعلك ميتًا لا تشعر بأي شعور آدمي، تصبح جماد مثلج الأطراف يموت قلبك متحولاً إلى قطعة جمر اصفرّت من الحنق واشتدّ لهيبها حتى احمرّت فصارت جهنم مصغرة على الأرض لن يوقفني أحد، ها أنا قادمة والأداة موجودة، جريمة كاملة نسجت بعقل متقد حتمًا لن تفشل.
قاطعني صوت الهاتف، لن أبالي، وصلتني رسالة:
"عزيزتي تمارى، أعتذر للبعد فقد ذاب قلبي بدونك وقررت اللقاء."
لن أقرأها، تجاهلت نغمات الهاتف، تابعت تصفيف شعري، أريده متدرجًا يتدلى بسحر

مداعبًا خصري الممشوق، بدلت الشهرة طريقتي وجعلتني صاحبة الشعر الطويل عكس أيام الجامعة، حذاء سيندريلا يناسبني أكثر، موت رحيق كمقابلة حمدي، كلاهما سعادة وبلوغ المُنى تستحق التأنق، تناولتُ حقيبة صغيرة فضيّة اللون، بدأت في خوض المغامرة، أنزل الدرج بخطى واثقة من وجهتها، تعلم إلى أين تمضي..

اقتلاع روح رحيق الخائنة..

تتناغم الدرجات مع صوت الحذاء على دقات الساعة الكبيرة تيك تاك تيك، تحتل مكانها على حائط الاستقبال، نظرت للطاولة فوجدت علبة الشوكولاتة مفتوحة... جحظت عيناي مكانها، دارت خاطفة في كل اتجاه أصرخ:

- لا!

أسرعت الخطى فذلت قدماي، أصبحت بحذاء واحد، ألقيت الحقيبة بكل قوتي أتساءل:

من الضحية؟

أمي... لا.

قلبي يرجف، يرفض بشدة ذلك الافتراض، كيف سأعيش وأنا قاتلة أمي! ناداني صوته خلف المائدة المجاورة لستائر الردهة الفاصلة بين حمام السباحة والصالة..

عندما بعث حمدي برسالته كان على باب تمارى، طلب من الأمن ألا يخبرها، فوجوده بمثابة مفاجأة سارة لها، قال الحارس الشخصي الذي يعرف الكثير عن نجمته:

- أعطني ما يثبت أنك تهم الفنانة.

رفع يديه قائلاً:

- ها هو.

نظر الحارس إلى هاتفه فوجد مجموعة صور في أماكن متفرقة تجمعهما علاقة قوية بدت قديمة لصغر سنهما.

أشار له:

- تفضّل.

أفسح الطريق أمامه برحابة صدر، مد يده راسمًا الطريق نحو الهاوية، الفراق الحقيقي، تسلل كعادته الخفية، أطلق صفيره المسلي ولكن لم يظهر أحد سوى الخادمة ودلفت فورًا إلى عملها بعد منعها من إخبار ماريا، أدخل يده في جيب بنطاله، يحاول

تمرير الوقت، يتعجل الساعات المقبلة دون أن يعلم أن هذه الثواني المعدودة هي آخر عهده بالحياة، الانتظار والمراوغة.

تصوّر قالب الشوكولاتة للضيوف فأخذ واحدة، قضمها وهو يسير ليصل إلى الستائر، قبل إنهائها سقط صريع ألمٍ حاد في معدته جاءت تمارى فزعة فقالت بصوتٍ يرتعش:

- حمدي، ماذا أتى بك؟

بدلاً من لهفة اللقاء، ضمته إلى صدرها، عاتبته على نواياها المريضة، محملة رجوعه المفاجئ خطأ تجرعه السم.

- جئت لأعتذر على فراقك، انفصلت عن ميرفت لا أستطيع التمادي في كذبة تحوّلت إلى حقيقة، أحبك، آآه..

- متأخر جدًا.

استند على كتفي، تحتاج إلى غسيل معدة حالاً.

علي، أم نور... الحقوني كلموا الإسعاااف بسرعة...

توقفت الساعة عن الدوران، تعلن نهاية الشر قال هامسًا بكلمات لا تكاد تُسمع:

- لم يعد لدي وقت، أشعر بدنو أجلي.

حمدي عزيزي، كنتُ أنتظرك كل يوم لم تغيّر الشهرة مشاعري، وحدك كنت في فكري، انهض..

أرجوك لا تتركني..

ارتفع صراخها، طال الصحف والمجلات، ذيع في الراديو وجميع القنوات، كم تصبح عدالة السماء واقعة لا محالة مهما كنت شديد الدهاء.. على الجانب الآخر من حياتها تعيش رحيق، صديقة عمرها البسيطة التي سخر لها جنود إلاهية ترعاها، تقف أمام وسائل الإعلام في مؤتمر يهدف لرد الحق لأصحابه بعد افتضاح قصتهما قالت باتزان:

"السلام عليكم ورحمة الله، أولاً أعتذر عما حدث، تلاعبنا بذوق الجمهور الراقي، ولكنه حقًا كان مقدرًا لنا، تمارى أقصد ماريا صديقة حقيقية.." قاطعها أحد الصحفيين قائلاً:

لكنها كانت تنوي قتلك؟

لن تفعلها، قلبها أبيض من الداخل. إنها مجرد فكرة لتعيدني عن قراري.

نطقت صحفية أخرى:

- نفهم من كلامك أنكِ قررتِ أن تغني بنفسك؟

- لا، يكفي ما خسرته، المجال صعب والمنافسة دارية لن أستطيع تقديم أي تنازلات لا في جسدي، ولا في روحي... والآن اسمحوا لي الساعة قاربت على السابعة موعد درس الزومبا.

عادت رحيق لحياتها الطبيعية الأولى، لم توافق على دخول الدوامة، اشترت أشياء ثمينة بعتُها بالرخيص... أكتب على جدران زنزانتي.. أنا ضحية نفسي.. ليت الزمان يعود يومًا! ونسطر بداية مرضية للجميع.. تظل أعمى ما دامت هناك فرصة للرجوع، للتوبة وللإصلاح، مع نفاذ الفرص، وبلوغ النهاية، تُزال الغشاوة من عينيك فتُبصر الحقيقة، بصرك اليوم حديد، لا مجال للغش والبحث عن شماعة تحمل خطأي، حقدي الدفين، نفسيتي المريضة لن تفيدني.. أدركتُ نتيجة أفعالي.. خسرتُ كل جميل انتظرته.. عزيزي حمدي كنت ضلعًا في مثلث فنائي فلا تبتئس بنصيبك، جُزيت ما نلت بقي أبي المسافر رأس الزاوية القائمة في المثلث، عقابه هو ضياعي، الضلع الأخير هو عقلي، تفكيري، القرارات الحاسمة، الطريق المسدود الذي طرقته عن قصد، ضِعتُ فيه بلا رجعة، لن أفقد عقلي كما يحدث، فقد تسبب الصدمة ضياعًا للعقل وأحيانًا رجوعه..

****

هديل

أخذت فرصة قبل البت في علاقتي المهترئة، طلبت من مسعد الابتعاد بشكلٍ ودّي، فقلتُ هاتفيًا:

-سأذهب إلى الإسكندرية أحتاج للبحر، مكان واسع يسمعني ثم يثور الموج فتدفن أوجاعي وصرخاتي.

تمسك بي ولم يوافق بسهولة، جاء صوته مخنوقًا يسأل عن صغيره:

- أين ياسين؟

-مع جدته في شقة المعادي، لا تقلق.

-وهو كذلك، اذهبي وأنا سأنتظرك كل يوم تُشرق فيه الشمس، لن تغيبي مع الأفول، فأنتِ زهرة عمري، وتميمة حظي..

كلماته كالبلسم يُعيد تطييب الجروح، ولكن النزيف الدموي يحتاج إلى تطهير قبل البدء في علاجه، أغلقت الهاتف، ألقيته بالمقعد الخالي، زدت سرعة السيارة مع نسيم الهواء الغجري، أُصبت بنوبة نسيان مفاجئة، كلما تقدّمت السيارة كلما تراجعت عن الفراق، أشعر وكأني مسافرة منذ زمن، على متن إحدى العبارات الهاربة، لا أعلم غايتي، فررتُ من حبه ونمطية حياته وألقيت نفسي سجينة أملاك مسعد أبو الخير...

أدور بجسدي كمن يستشعر دنو أجله، غرق السفينة قادم لا محالة، فهي قديمة لن تقوى على حملي، لا بر أمان يمكن أن تصل إليه.. استدرت فجأة بالسيارة، رسمت خط عريض في فناء الطريق، غيرت الهدف، لما الهرب؟ لمَ وأنا بالأصل هاربة من نفسي وسعادتي منذ زواجي؟ الانفصال هو الحل، لم أحبه يومًا، حتمًا يشعر بذلك إن كان يشعر من الأساس، كانت مجرد صفقة...

يلزمني ساعة واحدة واقف فوق رأسه الأصلع المزدحم بغرامي كما يزعم، أرى أشواقه الكلامية واقعًا أمامي، أبثه حقيقة ثلاثة أعوام سُرقوا من حياتي.. أوقفت السيارة خارج الفيلا، نزلت بهدوء مترجلة كما جئت أول مرة، تغيّر وجه البواب عندما رآني، تمتم بصعوبة وهو يزدرد ريقه الثخين:

الهانم... أهلاً أهلاً...

دلفت دون النطق بكلمة واحدة، جاءتني قوة إلاهية تدفعني للأمام، طرقت جرس الباب أكثر من مرة، سماح في غفلة كعادتها، تنام في أي ساعة من التعب. صوت البوابة يعزف مع صوت الليل، الهدوء مستهجن بالنسبة لي، صعدت الدرج أولاً قاصدة غرفة النوم، قابلني صوتها المغنوج تتأوه، تستغيث لوعة عذابه، تطالبه بالاقتراب أكثر، نظرت من ثقب الباب فرأيتُ فجيعتي الحقيقية، زير النساء يتخذني ستارًا لرغباته، شكل اجتماعي مُنمّق، لم أُفكّر في أي شيء سوى قتله وسحلها.

سحبتُ مسدسه من درج مكتبه، كالجندي يحارب في معركته بجد ويتمنى النصر، دفعت الباب بقدمي مرتدية تلك الملابس الفاخرة التي طالما تمنيتها، سترتي الغالية أزلتها قبل مداهمتهما، أتحرك وكأنها قضية آداب ضبطت للتو، الهلع يسيطر على وجوهم المشتاقة، غطى الخوف على نهمهم الجنسي، جعل غريزتهم الحيوانية تلوذ فارّة من النافذة، تركتهم عراة بلا رغبات. فقط خائفين من الموت المحتوم. قال مسعد بخوف:

- هديل، عزيزتي أنا..

أنتِ أخري، لا تنطق وإلا أطلقت على رأسك الرصاص.

انتفضت الفتاة من المخدع وهي تصيح:

- أنا.. أنا ليس لي ذنب..

- نعم، مجرد سلعة رخيصة، عبدة للمال أليس كذلك؟

أعطاني مسعد فرصة أخيرة، وهبت لهما الحياة، ولي الحرية قال:

- اطلبي أي شيء، خذي الشركة، ياسين، ولا تقتليني لا تضيعي روحك فالقانون لن يرحمك.

قهقهة معقبة:

- يا سلام على الحب تهتم بي حتى وأنت في أحضان أحدهم.

- طبعًا أنتِ أم ابني.

- تمام، امضي حالاً تنازل عن الشركة وحضانة الولد، ويكون في علمك إياك أن تُسوّل لنفسك أني سهلة لا، صوّرت كل قذارتكما وبعثتها إلى صديقاتي، إذا لم أخرج من هنا بعد ساعة أعدك أن تُشارك ليلتك الساخنة على جميع مواقع التواصل الاجتماعي...

ارتعب أكثر، بحث عن روبه الستان ليستر جسده، أما هي ذات العيون الخضراء، والشعر المستعار خرجت مهرولة من الغرفة، علمتُ أنها ليست طرف في صفقتنا الأخيرة. تزوجنا بصفقة وانتهينا بأخرى.

كدت أضع المسدس من يدي بعد استلام الأوراق قائلة بأريحية:

- لا حاجة لهذا؛ لأنك تعلم بالفيديو.

طأطأ رأسه موافقًا..

الحقيقة لا يوجد فيديو ولا غيره، أي امرأة يمكن أن تصور زوجها وهو يخونها مع أخرى!

تحتاج تلك العميلة إلى صبر لا نملكه نحن أغلب النساء، كانت مجرد حيلة اخترعتها لتدعمني، ما زلت أنثى ضعيفة في حضرة رجل قوي البنيان قادر على مهاجمتي في أي لحظة، بالعقل جعلته محاصر في مربعة، سجين مقعده الفاره..

حصلت على المال ولم أخسر سوى ثلاثة أعوام من عمري، الآن يمكن إعادة كل الأمور كما كانت، مجدي، أول إنسان أحتاجه في حياتي الجديدة فتحت الهاتف هناك رسائل كثيرة توالت النغمات أهمها هو، القلب يشعر بمن يفكر به حقًا، تذكرني بعد هذه المدة، سمعت رسالته الصوتية بدأت ب:

"السلام عليكم، أنا أركيدة، وأنا مجدي، قررنا نتزوج وندعوكم على فرحنا يوم الخميس القادم في انتظاركم.. هذه الرسالة لأشخاص معينة هم أقرب ما لنا في الحياة.. مع العلم لا يوجد دعوات ورقية... في انتظاركم."

عضضت على شفتيّ بنصف ابتسامة قائلة بحيادية وتقبل:

"فعلتها أركيدة الذكية، انتظرت بصبر ونالت قلبًا ثمينًا هو فعلاً أغلى الأشياء."

حتمًا سأذهب، أنا و ثروتي الوحيدة، كنزي المهمل، سندي الغالي، ثمرة زواجي ياسين. مع مرور الأيام مارست عملي بجدارة وجدية في الشركة. طورت عدد من خطوط الإنتاج بلمسة أنثويّة... ظهر صاحب شركة منافسة يحاول التقرب مني ولكن قلبي غير متاح الآن. على بابه لوحة صغيرة. مسجل عليها "مغلق للصيانة".

****

أركيدة

- كم الساعة؟

- اقرأها أمامك..

- أين؟ أوو عينيك.

- نعم،

هي كل أيامي، سنيني، مواعيدي.

- كم إذًا؟

- الواحدة، موعد طلوع البرج.

- لا، أرجوك أخشى الأماكن المرتفعة.

- هشش، اتركي كل الماضي للماضي دعينا نُسطّر ما نُفضّله أو نكرهه من اليوم، لعلمك أننا لا نخاف من الأمر بذاته بل نخشى أن نمر به منفردين بلا حبيب. بلا عضد يُساندنا.

يد تمنعنا من السقوط، أغمضي عينيك الجميلة وامضي على همسات كلماتي، استمعي لأنفاسي المتطايرة حولك، لا تخافي وأنا معكِ.

- ستظل معي؟

- لا.

قالها بطريقة هزلية فلسفية.

- لما لا؟

لأنكن يا معشر النساء تتعاملن مع الرجل وكأنه آخر قطعة في المتحف، الحب يسلبكن كل شيء، من الآن أريدك أن تحتفظي بنفسك، روحك، أشياء ثمينة فكريًا تُحصّنك من لوعة البُعد، من اختار الفراق هو الخاسر، دموعكن وقت البعد توحي بغير ذلك، تُعطي قيمة للبحث فيرى نفسه عنترًا وهو بدون حواء، تائه، أشعث وأغبر..

ابتسمت على طريقته الحوارية الممتعة، وكأنه خُلق ليشجعني، يبثني قوته وثباته، يهبني ثقة كبيرة في نفسي وقدارتي.. كلما تحدّث كلما عشقته وسرت خلفه بقناعة.

هذا هو الحب، دفعة للأمام، راحة غريبة، سعادة للطرفين، بهجة للجميع.. صعدنا السلم درجًا خلف الآخر، قررتُ رفع يديه عن عيني قائلة وأنا ممسكة بها:

- مجدي، أريد رؤية طريقي معك.

- يا أللهِ! يعزف صوتك أجمل لحن سمعته بحياتي، أنتِ الرفيقة المنشودة، لطالما بحثتُ عنك، أركيدة تتزوجيني؟

تتعامد أشعة الشمس على نهر النيل، تصب حممها الساخنة في قلبه، تجعله يذوب بإرادته أمام قوتها وعنفوان رسائلها، قلتُ بصوتٍ حالم يتأنى:

- قل لي أولاً منذ متى وأنت تهتم بي، أعرف أن الرجل لا يطلب أي فتاة للزواج بتلك البساطة.

- إنه طلب كبير سبقه إعداد طويل، تفكير، سؤال، ثم قرار

في الحقيقة عندك حق.

بصوتٍ ضاحك وبعيون شبه مغلقة أكمل:

- منذ أول محاضرة، لفتِّ انتباهي فبدأتُ فورًا بالتقصي إلى أن قررت الزواج بك، ذهبت إلى الحاج عبد الله وطلبت يدك، دخلت البيت من بابه، ما رأيك؟

وضعتُ كلتا يديّ على فمي، أكتم صوت الصياح بلا! قلتُ مندهشة:

- أنا آخر من يعلم!

- لا، سمِّها مفاجأة.

- أجمل مفاجأة في الدنيا.

- أفهم أنكِ موافقة؟

- أكيد..

- عندي فكرة جديدة وبسيطة لدعوات الفرح.

- ما هي؟

- نبعث رسالة صوتية لي ولك للمقربين فقط ندعوهم بأسلوب مبسط معلنين عن حبنا ورغبتنا في الزواج، نحاول الاستفادة من التكنولوجيا.

- موافقه ولكن إياك أن تكون خدعة للادخار... هههههه...

أصبح ما يخيفني أفضل ما يحتويني، رفعتُ قدميّ فوق سياج الحديد المسورة للبرج، ممسكة بشدة بآخره، عندما لامس ظهري براحة يده فقدت كتلتي وخفّ وزني، شعرت لأول مرة بأني أحيا، أتنفس، أطير كريشة بيضاء تتأرجح في سماء الدنيا متخذة السحابة الزرقاء مخدع وجمال الطبيعة لوحة رُسمت خصيصًا لها، أطلقت حرية يدي يمينًا ويسارًا، ذهب كل ذراع في اتجاهه المشروع، أحتضن الهواء المرتفع، يغمرني بأريحية، يتخلل صدري المستسلم لقبضته، يسري خلفي ليلامس خديه، لحظات رومانسية أهداها لنا القدر، جاء صوت الهاتف ليقطع فسحتنا البسيطة، قلتُ بهدوء:

- أنزلني يا مجدي.

- لا.

يغمض عينيه خلف رأسي، مقربًا أنفاسه الحارة من وجنتي، يقاوم الهاتف بشدة، يتمنى أن نظل عالقين في الهواء معًا، وضعتُ قدمي على الأرض يكفي تحليقًا، يحتمل أن تكون أمي، أصبحنا في مقابلة بالوجه لا في ظهري، تفتحت الورود في عيني، يضمني بيديه، لا ينوي إفلاتي، صمت الهاتف فقال مداعبًا:

- ها هو، أحس وتركنا..

وضعت يدي فوق معصمه أحاول الإفلات:

- عن أذنك لحظة، لن أهرب صدقني... أسحب يده على مضض، قائلاً بصوتٍ حنون حالم:

- ومن سيتركك تذهبين؟

عاد الهاتف بالطلب من جديد، إنها لمياء صديقتي، هاتفتني بصوت تائه متلجلج:

- ألو.

ألو، أركيدة، أنا محتاجة لكِ كثيرًا.

- خيرًا، ماذا بكِ؟

روت لي ما دار بينها وبين شريف، إنها بالشارع الآن لا تعلم أين تذهب؟

فجأة قررتُ الانسحاب، لا أعلم لمَ في هذا التوقيت بالتحديد؟

عقبت محللة الموقف:

- أنا أعلم، تحملت الكثير، فالمرأة تُمسك بزمام الأمور لأبعد مدى، وإذا فاق الحد ألقت بحملها في أقرب وقت ولأتفه سبب، يمكن أن تفعل أي شيء، تتحول طيبتها، عفوها وضعفها، إلى جبروت لا يُصدّق..

الأفكار تستبق لتأكل رأسي، تؤنّبني لمَ لم أواجهه بشعوري تجاهه، أصرخ به أمام الخلق، أو سرًا، لا يهم، المهم أن أبوح بما يضيق به صدري..

- قولي لي، سأسمعك.

- كنت سأقول إنه رجل إلا ربع.. لا يرتقي لمنازل الرجال.. ضعيف، انهزامي. عيناه زائغة مثل الكلب عندما يرى الطعام مهما كانت قيمته يسيل لعابه.. خائن، كاذب، لا يستحق أن يكون أبًا.. أجرحه في وجوده المعدم فقد أعطي خارج البيت كل ضيائه وبهائه ولم يبقَ لي سوى صمته وعتمته..

- من الأفضل أنكِ تركته بلا جدال، لعلمك إذا جرحتِ رجولته سيهين أنوثتك بقسوة، هذه بتلك... لا تقتربي وإلا خرجتما خاسرين، فاقدي الأمل في الرجوع ضالين الهوية.

صوت البكاء يُسيطر على صوتها فلا تسمعني كلمات فقلت:

- تعالي إلى السكن، أم ناهد ستتذكرك، لا تقلقي.

- حاضر لحظ....

قطع صوتها صرخة مختلطة بضجيج الشارع أصبح بها:

- ألوو لمياء ألو...

أجابني مجهول أجش الصوت:

- صاحبة الهاتف سقطت نتيجة حادث وسينقلها السائق إلى مشفى الحي.
- مجدي، أنا لازم أن أنزل من هنا حالاً..
- لمَ؟
- تعرضت صديقتي لحادث مروري مفاجئ.
- لن أدعك بمفردك.
- إذًا هيا بنا..
استقلنا التاكسي أسفل البرج مباشرةً، هاتفتُ يمنى ستلحق بي مع هديل، في بداية لقائنا لم نكن متقاربين إلى هذه الدرجة مع المواقف الحياتية، والأزمات أصبحنا مقربين جدًا، وصلت يمنى قبلي، عرفتها من صوتها المرتفع تختلف مع السائق قائلة بحدة:
- أنت أعمى! لن أتركك تذهب بفعلتك، سأطلب الشرطة.
- غصب عني، أقسم بالله أختك خرجت فجأة من الشارع الجانبي، ليس خطأي.
-لا تبرر تقصيرك، حتمًا كنت تهاتف أحدهم أو مشغولاً بسماع الموسيقى.
- جلس الرجل بضيق، ينعل حظه، يبدو أنه سائق سيارة أجري، لم أختلط به، آثرت الاطمئنان على لمياء أولاً، الكلمة الأخيرة لصاحبة الشأن خرج الدكتور في زيه المعهود، يرتدي البالطو الملائكي، يتحرك خطوتين للأمام نحونا عن باب الغرفة ليقول بوقار:
-الحالة بخير، أصيبت بكسر في الساق اليمنى وبعض الكدمات في أماكن مختلفة، تحتاج إلى راحة شهرين على الأقل.
- ممكن أن تخرج اليوم؟
سألته باهتمام فقال بعد فنية من الوقت:
- يستحسن أن تبقى تحت الملاحظة عدة أيام لإجراء الأشعة والتحاليل اللازمة.
- ممكن نراها؟
- قالتها يمنى وهي تمسك بمقبض الباب تنوي الدخول، أشار بيديه:
- نعم، تفضلوا، دون ضجيج إذا سمحتم.
هز الجميع رأسه بالموافقة، دلفنا إلى الغرفة ما عدا مجدي، نظرت للخارج فوجدته يسأل عن حساب المشي رد عليه الدكتور بأن السائق تكفل بها فقال بهمة:
لا، ما حدث قضاء وقدر بالإضافة إلى تخبط الحالة نفسيًا ردوا إليه أمواله وأنا كفيل بها..
لم أتمالك نفسي إلا بابتسامة عفوية تربت على كتفي، مجدي شهم مع الجميع ولا يتصنع بفضل الحب مما يعني أنه طبعه ولا يتجمّل لي وحدي..

تضع الممرضة لاصقًا طبيًا على خد لمياء الأيسر وتخرج من الغرفة، تمتمت ملامسة يدها:

- حمدًا الله على سلامتك.

- الله يسلمك.

- يمنى، ماذا حدث؟

ترد هديل:

- ليس وقته، المهم أنها بخير. تبادلنا الحديث بسطحية دون التعمق في شيء، عندما دلف مجدي تسمّر قليلاً أمام هديل ولكنها قطعت الثبات عندما قالت:

"مبارك لكما، قرار سعيد بالنسبة لنا."

اقترب مني فجأة، وضع يده على خصري ليجيبها:

- فعلاً، ولي أيضًا...

استأذنت بعدها مسرعة بحجة الشركة وطفلها، الوقت يمضي أوشكت الزيارة على الانتهاء طلبت من مجدي المغادرة لأني سأبيت مع لمياء فقال:

- طبعًا لا مشكلة.

قاطعتنا يمنى بخفة:

- لا، اذهبي مع خطيبك أنا عزباء لا يوجد من يسألني أين أنا؟

- هيا...

ابتسمنا على مزحتها، حتمًا يسألها والدها ولكنها تعني بالاهتمام من طرف آخر قلت مودعة لمياء، نلتقي غدًا.. لمياء تهز رأسها برفق، تعلن الموافقة..

خلت الغرفة من الزوار ولم يبقَ سواي أنا ويمنى أتمدد أمامها في حالة صعبة فقالت تمازحني:

- احكِ لي ما حدث لن أجلس صامتة مثل النجفة...

ضحكت بصوت جعلني أتألم:

- أه،

أصبح الضحك مؤلمًا..

أصرّت وقدّمت الحل:

- تحدثي ببطء كلي آذان صاغية.

قصصتُ على يمنى كل شيء بما فيه قراري الانفصال عن شريف..
- لا تقرري أمرًا مصيريًا وأنتِ في ثلاث حالات، متعبة، غاضبة.
- والثالثة؟
قالت بعيون واسعة، وأنتِ جائعة..
أحضرت لنا بعض المخبوزات الطازجة مع كوب عصير مانجة، يقولون العصائر مهمة لذا لم تجلب لي قهوة كما طلبت متفلسفة:
"القهوة لا تشرب على مرض، لها طقوس خاصة، أما في حالة تفكير عميق وأما سعيدة تحتاجي لما يعتق طعم سعادتك وكأنها تحفرها في الذاكرة."
تمازحني بكل جملة، شعرت وكأنها تجاري عقارب الساعات، تضحك على حالها لا على ما تقول، كشفت ستارها اللفظي قائلة:
- ماذا بك؟
- أنا، لا ش...
- انجزي، ادخلي بالموضوع الليل طويل يحتاج إلى رغي لا ينتهي...
قصت عليّ خلافها مع عمرو، تناقض نفسها، تارة تقول أفتقده وتارة أصبحت أفضل بدونه، لن أسدي لها نصائح الآن هي كلمة واحدة، الحب الحقيقي فرصة لا تتكرر فإذا ضاع لن تملكي ثمنه أبدًا والدليل هديل، ها هي أمامك...
- يكفي حديثًا الليلة، أغمضي عينيك وارتاحي قليلاً..
الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، يمر الوقت باقتضاب وكأنه ينتزع من جذوره، قلتُ لها قبل نومي، لا تهاتفي شريف...
- من قال إني سأفعل؟ أفهم أنك تذكريني به، قطعًا مشغول عليك ولن ينام الليلة.
ابتسمت لمياء ولم تجبني... أعلم أنها تحبه، تنتظره، تشتاق لضم حور بشدة، لمسة يدها قادرة على تضميد جراحها وتسكين الألم..
عاد شريف إلى المنزل لم يستطع الذهاب لأمه، ماذا سيقول لها؟
وماذا يفعل بحور؟
هاتفها يدعي أنه ينوي قضاء تلك الليلة مع لمياء بمفردهما فقال:
- أمي، حور أمانتك اليوم أعلم أنكِ تفتقدينها كثيرًا.
- قطعًا هي حبيبة قلبي.

ضحكت بطريقة نسائية خبيثة صدقت إننا معًا نقضي أوقاتًا حميمية خاصة.. تركتها لخيالات الحما فهي في صالحي، لم أشأ فضح تفاصيل حياتي بهذه السرعة، متأمل في زوجتي رجاحة العقل، غطائي سيسترني كما تعودت، دلفت إلى غرف الشقة، أبحث عن صوتها، رائحتها، ضجيجها مع صغيرتنا، المطبخ هادئ بلا روائحه الشهية... أجهدني البحث عن لمياء طوال اليوم، رميت جسدي بلا مقاومة على الأريكة، بدأ الصداع يتسلى برأسي، أفكار متعددة إلا طلاقنا..

عندما غابت عدة ساعات عن حياتي فقدت توازني، وتفرقت أسرتي الصغيرة... لم ينقذني من مأزقي سوى ذبذبات الهاتف...

إنه رقم مجهول أجبته متم ً

- ألو.

السلام عليكم ورحمة الله.

- وعليكم السلام، من؟

صوت نسائي يبدو عليه الحيرة، قالت بحذر وهي تلتفت:

- أعتذر عن اتصالي في هذا الوقت المتأخر ولا أعلم من منكما يستحق الاعتذار.

- من معي؟

- معك يمنى، صديقة لمياء.

- أهلاً وسهلاً، تعرفين شيئًا عنها؟

- للأسف لمياء أصيبت بكسر في رجلها اليمين وهي حاليًا محجوزة في المستشفى.

روت لي ما حدث تفصيلاً موضحة شعور زوجتي المتخلخل، أفكارها المتضاربة، ثورتها النسائية، فقدان الأمل في التغيير، قلت مستفهمًا:

- ما اسم المشفى؟

- مستشفى العجوزة.

- سآتي فورًا. أمسكت بمفتاح السيارة، اندفعت نحو الباب ولكن صوتها المعترض أعادني بتثبيط:

- لا، الزيارة صباحًا، ولكني أرجوك ألا تأتي مبكرًا، أنتظر للمساء لكي تفتقدك لمياء فتقابلك بشوق بدلاً من العتاب.

-سأحاول برغم صعوبة الموقف، أشكرك يا آنسة يمنى.

- العفو...

أغلقت الهاتف وأنا أترقب، أتمنى أن تكون نائمة حقًا، ما فعلته واجب تحتمه عليّ صداقتنا، آسفة يا عزيزتي.

الصديقة الحقيقية هي من تصلح أخطاءكِ، تصحح مفاهيم الناس عنك، تزيل الغبار عن سمعتك وها قد فعلت، طمأنت زوجك وحولت مشاعره تجاهك، طلبته بدون أن تقوليها، أعرف كبرياءك جيدًا

الليل يتسلى بيقظتي، يجلس بفمٍ واسع ليتناولني على مهل، يرتشف على مسمعي قهوته الباردة، لا هو ينتهي ولا أنا أنام، حاولت وضع جسدي على الأريكة المجاورة لسرير لمياء لعل السلطان يأتيني، فأنام بعمق!

في الصباح الممرضة تزيل غطاء الشمس فترفع عن عينيها النوم، استيقظت مع خطواتها، أنتظر جرعتها المسكنة، كسر العظام أمر مؤلم ولكنه حتمًا ليس الأصعب، الحمد لله على قضائه.

قالت بوجه طلق:

- صباح الخير.

- صباح الخير،

دسّت الحقنة في المحلول المعلق وهي تقول ببشاشة:

- تشعرين بتحسن أليس كذلك؟

- نعم، قليلاً.

- لا بأس مع الوقت ستندمل جميع الجروح... إذا كان الإنسان يفنى فهل يبقى الألم؟

قالت يمنى بعد أن رأت الممرضة النحيلة تختفي أمامها:

- هذه المرأة متفائلة جدًا..

بدأت مداعبتها المزيفة، قلتُ رافعة عينيّ إلى عينيها الذابلة:

- لمَ لم تنامي أمس؟

جمدت ساقها ولم تخطو نحوي، دهشت بشكل مبالغ، سؤالي بسيط لمَ تتصرفين كمن يخفي جريمة... تمتمت:

- ماذا تقصدين؟

- أقصد عمرو، سفره أثّر في حياتك، لا تنكري. تصرفاتك تنطق بالحقيقة. تنفست بعمق ثم أقبلت مستبشرة، جلست إلى جواري قائلة:

- وحضرتك أيضًا لم تنامي جيدًا.

- من الألم، أتوارى خلف الجبس، ناظرة إليه فقالت ملامسة يداي:

- عزيزتي لمياء، شريف يحبك وحور تحتاجك، لا تتركي بيتك وحياتك لامرأة أخرى، مهما كان تصرف شريف، لكل جواد كبوه، انتظريه ريثما يعود وإن لم يعد اذهبي لاقتناصه من عينيها، كوني قوية له لا عليه.

أبعد النظر عنها، أتحلى بالصمت، الوقت لا يسمح بالنقاش دخلت أركيدة تهلل:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام.

أمسكت يمنى بحقيبتها التي وضعتها على الطاولة قائلة:

- ما هذا؟

- أركيدة، فورًا تضعين أنفك بكل شيء..

- نعم.

فتحت الحقيبة ومعها تخبرنا آرو بما فيها، إنها وليمة بعثتها أمي مع أخي اليوم، قلت تشعر بلمياء، قلب الأم لا يخطئ وقت الضيق..

- يا رب يعجبك.

- وكيف لا يعجبني! جميع الأمهات طعامهم شهي... وكأنه طبخ في الجنة وقدم بأيدي حراسها.

- بلغيها سلامي يا آرو.

سألتني أركيدة بحنين للماضي:

- ما زلتِ تذكرين هذا الاسم؟

- نعم، أحب تحويل الأسماء إلى تدليل، جزء صغير منها يكفي يقربنا أكثر ويُزيل الحواجز.

- صدقت، سأرافق لمياء اذهبي أنتِ؟

- لا، تطردينني؟

- لمياء، نعم..

- يمنى لمَ فأنا كائن خفيف الظل، رقيقة مسالمة.

- لأجل موعدك المهم.

- ليس لدي موعد.

- بلى، لديكِ، أهم موعد في حياتك يجب ألا تضيعيه..

أخذت يمنى حقيبتها وهي تخرج زفيرها ببطء قائلة:

- إذًا إلى الفيوم..

آرو، لمَ تسافر فجأة؟

- لا أعلم..

-حقًا، وحدك تعلمين كل تفاصيلنا.

حقيقة.

- وحدي ملمة بحياتهم، أنا ملتقى الجميع. جلست تتصفح على الإنترنت، انتهزت الفرصة لأسجل فكرتها، قصة حياة... لا هذا الاسم لا يصلح، لا يهم، يكفي أن أروي وجعي، شعوري تجاه شريف، أقبلت رحيق فأكملت الدائرة، هديل لديها اجتماع هام هاتفتني معتذرةً، المساء موحش، كم يكون الوقت قاسيًا عندما نفتقد شخصًا أو مكانًا وربما شيء، فالشعور واحد والغرض متعدد.. ذهب الجميع ولم يبقَ سوى قلمي، أمسكت بصفحة بيضاء، قررت اغتيال بياضها بتساؤلاتي.

لمَ يتحول المرء مع الأيام إلى شخص آخر لا يعرفه؟

يكون الحب في أوجه قبل الزواج، وبعده يصبك الصمت، خرس شبه حقيقي إلا أنه مع الشريك فقط!

لا مع الناس، تجد الرجل يبتسم وتلاطفه النساء والأخرى تتحدث ويعجب بها الرجال.. يتخللهم الروتين، أعتقد أنه لا تصدأ الجواهر إنها تتعكر مثل مياه البحيرة تحتاج إلى تجديد، إزالة غبار الضغط والمسؤولية، تحتاجون إلى حياة لا تشبهكم، وربما

زيادة جرعة الجنان، السفر، الرقص، تعلم رياضة مشتركة، أي ابتكار يجمعكما، الحياة بدون عمل ترفيهي مملة حقًا...

إنه السابع عشر من مارس، الشتاء يتقهقر على مضض، يستضعفنا ببرقه ورعوده، يبكي ملء عيون السماء، يغسل خطايانا الصيفية العارية من الحياء، يتمنى أن نطهر وننتظره بصدقٍ في العام التالي، بلا غش، بلا كذب وبلا خذلان، بلا فقد، بلا رياء ولكن هيهات..

****

(١٢)
يمنى

استقلت سيارتي الشبيهة بالضدفدع البري، صغيرة الحجم، يرتفع صوتها كلما سمحت الموتور بالدوران، بها ما بها ومع ذلك أعتاد بوجودها في حياتي، تريحني من رائحة العرق الصيفية، والانتظار على أرصفة الطرقات شتاءً.

هاتفت عمرو قبل وصولي المحافظة، فكّرت في اللقاء بعيدًا عن منازلنا، نحتاج إلى بعض الوقت لنتسامح ويعاتب أحدنا الآخر، نعيد صياغة المفاهيم المغلوطة التي فرّقت بيننا، أعتذر بحرص مورارٍ دون تصريح، أراه بعمق الخائف المستوحش فقد كان وما زال حصني وأماني، تواجده أمامي معبر نحو الاستقرار والأمان انتظرتُ أن أتفوه بكلمة

ألو... بصوت متحشرج يخشى الرفض.

كي أنطلق في البوح.

لكن جوابه لم يأتِ، وصلتني رسالة هاتفية محفوظة الهاتف المطلوب مغلق أو غير متاح،

كيف؟

سمعت أجراسه أول مرة، وضعت الهاتف بأسى يوحي بما يعده لي القدر، أي عقاب سأنال بعد قذفه بكلمات غثة طفولية جرحت مشاعره، حتمًا يتحاشاني فأنا استحييت... أوقفت موتور السيارة، أستجمع قوتي لمواجهة عمرو في قعر بيته، فلن أعود خالية الوفاض أبدًا، عزمت على الإصلاح كما دبّرت الجراح من قبل..

يجلس عمرو على كرسي مكتبه المبعثر، يتماسك بهشاشة داخلية، يمسح بيده على وجهه يمررها على شفتيه قائلاً بصبر مزيف:

ـ تفضلي، ها أنا أستمع.

قالت والدته بصوت مبحوح: من الصعب أن يوضع المعلم موضع التلميذ وترفع العصا عليه بدلاً منه..

ـ ما حدث كان مقدرًا لنا، رأيته في عينيه منذ اللحظة الأولى، يومها جمعنا القدر المحتوم صدفة عابرة، عثمان كان يثق به، يسره عطفه ورضاه عليه، كل مساء يحدثني عن

كرمه ورفعته في العطايا، بزخه ووحدته بلا أبناء، إلى أن جاء به إلى بيته، باغتني جلوسه في ساحة شقتنا دلف عثمان إلى المطبخ أراد صنع ضيافة له ريثما ينتهي الميكانيكي من إصلاح سيارته، تعطلت ظهرًا وهو عائد من مصنعه، تعثرت أمامه، عندما تكثر الأومر برأسك لا تنفذ شيئًا...

يقف عقلك مواجهًا للخطر، تفحصني بعيون مشرعة، دارت بأنحاء جسدي واستقرّت على ساقي المكشوفة، كحلوى يلهو بها الذباب، دثرتها بطرف الثوب، لم أدر أي موضع في جسدي يملك أولوية الستر وجميع تفاصيلنا عورة!

يحلق شعري بجنون الأنوثة، يلتف حول خصري بطول أسود جذاب، أغلق مقدمة الروب، أكبت جماح فرسان صدري من الانطلاق، أكبح جماح شبابي حينها، استدرت بعد دقائق من الارتباك هاربة إلى غرفتي، سترني بابها، مكثت خلفه أتابع حديثهم، هل سيذكرني؟ كرامتي على المِحَك، طلبني ببجاحة فظة:

- أين زوجتك، أريد مصافحتها؟

دخل عثمان في سعادة بلهاء يلبي طلب سيده، هرولت نحو السرير، أغمضت عيناي بدهاء نسائي أجهز أسبابًا مقنعة للرفض، قال ملامسًا قدمي:

- عزيزتي، رفعت بيه ينتظرنا في الخارج يريد مصافحتك قبل أن يغادر..

تمتمت بأصوات رافضة الاستيقاظ:

- لن أستطيع، ذاب جسدي وأنا أطهو الطعام وأقوم بأعمال المنزل، اعتذر له...

خرج مطأطئ الرأس ولا يدري أني أرأف بشرفه وسمعته، أتحاشى تلك العيون الوعرة، النفوس الواسعة والضمائر الخربة والرغبات الجامحة، أعرفهم جيدًا، أشياء لا تخطئها أنف النساء.. قال عثمان بحرج:

- زوجتي تغض في نوم عميق، أعدك بأن تراها في وقت آخر رد وهو يشعل سيجارة الثمين بصوت واعٍ يتجمل:

- قطعًا سنلتقي...

ومن بعدها بدأت الحلي والفساتين تطرق بابي بلا مبرر، صدقني يا ولدي رددتهم جميعًا، لا حاجة لي بأمواله ليس لي حق بها، رباني جدك على ترك الحق لأهله ولا تمتد يدي إلى ما ليس لي...

بعث إلى برسائل كثيرة، أستشعرها في حديث أباك، مثل طلبه أن أساعد زوجته في فيلتهم.. جل محاولته توجت بالفشل، كنت له بالمرصاد حتي وضعني أسفل ضرسه وقضم مفاصلي مثل قطعة الحلوى الناشفة.. وقفت أمام القطار لأول مرة صدفة والآن جاءني عامدًا، راودني قهرًا، كان عثمان مسافرًا مع شحنة ملابس لمحافظة البحيرة على غير عادته، سد رفعت كل الثغرات..

طرق الباب بحذر، عندما ضغطت على المفتاح دلف الهم إلى قلبي، دنّس علاقتي بزوجي، دفعني بقوة إلى الداخل، حاولتُ الصياح ولكنه لثم فمي بيديه، قيّدني بقوته الكبيرة، أخذني عنوة والباقي لا يعلمه، حدثت المعجزة، حملتُ بك، تأكدتُ أنك ولد رفعت الحاوي لا عثمان السائق، وحدها المرأة بعد الله تعلم سر نطفتها..

ابتعدت عن عثمان بحجة الحمل والإرهاق إلى أن خُلقت يا عزيزي وأنرت حياتي، شعرتُ بأنك هدية يهبها القدر لنا كي تُثمر بين زوجين عقيم أحدهما ولن يمتلك نعمة الذرية، تركت رفعت جاهل بنسبك، قضى سبعة وعشرين عامًا وحيدًا بلا ذرية وهو أب.. عقابه أنه لا يعرف، وإلا ستكون مكافأة على جريمته، زوجته لا تنجب كما أن عثمان لا يُنجب انظر لغرابة المصير! حاجيت عليك بحبي وحناني لم أدر أنهما غير كافيين إلا عندما انهرت أمامي لقلة حيلتك، اعتقدت لوهلة أنك لو علمت حقيقتك سوف تهدأ.

وضع غيظه بين أصابعه فقبض عليه قائلاً:

- لم يرَ شيئًا من العقاب.

- ماذا تقصد يا عمرو؟

خرج كالمجنون من الغرفة، أحضر سلاحًا أبيض من المطبخ وفي طريقه لباب الشقة، وقفت والدته تقول بصوت مرتفع يستغيث:

- لن أتركك تهدم مستقبلك.

- سأقتله لأستريح.

- لمَ يا بني إنه والدك برغم ما كان..

- لا، لن يكون أبدًا.

- إذا مُر على جثتي قبل أن تخرج.

- أرجوكِ لا تجبريني على شيء لا أريده.

سحبها للداخل مثلما فعل والده الحقيقي الفرق بينهم ولوج الأول وخروج الثاني مع الاحتفاظ للزمن بعدة أعوام...

تخاطب نفسها بأسى:

أصبحت مجرد لعبة في يد رجلين، يطيحون بي بلا رحمة، يا لضعفي وهواني!

جلست منزوية في زاوية ضيقة من الصالة، تبكي بحرقة تحجب عن عينيها الرؤيا، لم تتمكن من ملاحظة وجودي، الباب مشرع منتظر صاحبه الغائب، سألتها بصوت متردد:

- عمرو عثمان يقطن هنا؟

رفعت وجهها المغرورق بالدمع قائلة بأمل:

- يمنى؟

-نعم، حضرتك والدته؟

- نعم.

أسرعتُ إليها، ساعدتها على النهوض قائلة بتعجب:

- لمَ تجلسين على الأرض؟

مسحت بيدي خدها لأتأكد من مدامعها وأجيبها عنها قالت بلهفة أم:

- قلبي يحترق، أنقذي عمرو يا ابنتي. ذهب لقتل أبيه وهو مغيب، تحت تأثير التوتر النفسي والصدمة.

- العم عثمان؟!

- لا، المهندس رفعت.

اتسعت عيناي بذهول، تركتها تستند على الحائط فأنا بحاجة للمساعدة، قلتُ بذهول:

- هذا كثير، من يكذب على من؟

- حكاية طويلة عمرها سنين سأقصها عليكِ في الطريق، هيا

ترافقيننا لإنقاذه، كلانا تريده بدافع الحب، أخلص اثنين يمكن أن تحتمي بهم، أرق قلبين، أصدق مشاعر مع طفو كفة الأولى دائمًا هما الأم والحبيبة.. يهرول عمرو بسكينته الصغيرة، يُخفيها عن الماره، دخل الفيلا بسهولة، صرخ بأعلى صوته:

- رفعت يا حاوي.. اخرج اظهر يا مجرم. تناول رجل الأعمال الدرج مع زوجته في هلع يعقد روبه الثقيل الذي يحمي صدره من السعال المستمر، أصبح يخاف نسمات الهواء. حملق في يدي عمرو قبل أن يقول:

- ماذا بك يا ولدي؟

غضب الفتى أكثر:

- لا تقل ولدي..

- إنه مجاز، تعبير عن قربتنا ومعرفتنا الجيدة.

- أنت وغد لا أعرفك تستحق الموت.

تقدمت زوجته تتساءل بغرور:

- أجننت يا ولد؟

تنظر لرفعت قائلة وهي تشير إلى عمرو بطرف إصبعها:

-كثيرًا ما حذرتك من هؤلاء العامة ولم تستجب لي، انظر نتيجة أفعالك...

سبّها عمرو بعته:

- اصمتي يا خرفاء، لا شأن لكِ بما بين الابن وأبيه..

علّق رفعت بقوة:

- ماذا؟

دخلنا قبل أن يتفوّه بكلمة، قلت: عمرو. صوتي جعله يتراجع عن تفسير كلماته السابقة، استدار نحوي ومقلتاه تحتجز الدمع، أسرعت نحوه بلا إرادة، ألقيت السكين من يده، دثّرته بلهفة بين ضلوعي، قائلة بحنان:

"أحبك."

كلمة عظيمة يجب أن تنفرد، لا تقترن بها أخرى للاعتذار أو التوضيح، كلمة تجُب ما بدر من خطأ، تغفر ذلات الماضي، تفتح أبواب الرحمة والسماح، تجعلنا نُسطّر من جديد بعيون مبصرة، وقلوب ناضرة تعج بالخير والسلام..

تداركت والدته الحوار بعد وصولها متأخرة عدة خطوات فقالت بصوت يترفع عن ثرائهم:

- لا شيء مجرد مجاز يا رفعت بيه، آسفين لسوء التفاهم الذي حدث..

- أسفكم غير مقبول.

زوجة رفعت: عم ناصف اتصل بالشرطة تلم هذه الأشكال وتؤدبها.

قاطعتها والدة عمرو بثقة:

- لحظة يا عم ناصف.

اقتربت من أذن رفعت بيه قائلة بانتصار وكأنها تنتقم لكل الأعوام الماضية:

- عمرو يكون ابنك فلا تفضح نفسك في هذا السن الكبير.

زوجته تصرخ في الخدم:

- تحرك..

- لا داعي.

يقولها رفعت بكسرة وهو ينظر في عيني عمرو، مد يده إليه ولكنه رافض السماح بهذه السهولة، أخذ والدته بذراع وأنا مختبئة في الآخر، خرجنا بخير ثلاثتنا أما هما فأصبحا في شقاق وريبة.. تتساءل زوجته:

- ماذا قالت لك هامسة؟

- لا يهم.. حادثة قديمة.

عاد عمرو مذبذبًا لكنه يتماسك لا خيار أمامه سوى التخلي على الأقل الآن، استوقفني خارج الفيلا بمجرد تحررنا منهم ليقول:

-كيف عرفتِ بيتي؟

- قلب المؤمن.

- بصدق.

- بطاقتك، أنسيت أننا عشنا سويًا فترة طويلة، كنا أصدقاء بكل التفاصيل، أوراقك معي حتى هذه اللحظة، صورك وحقيبتك التي استعرتها منك يومًا وقلمك الأحمر وكذلك منديلك... لم أضيّع شيئًا يخصك أبدًا.

قال بحذر:

- أفهم من ذلك أنكِ موافقة؟

- على ماذا؟

تدخّلت الأم قائلة:

- لا، انجزوا يا أولاد، على الزواج يا حبيبتي.

عيناها مليئة بالبهجة والتفاؤل شبكت يدي في بعضها، لامست شفتاي بعضها بخفة ثم هززت رأسي للأسفل قليلاً، أطلقت زغاريدها فجأة زادت ارتباكي، فأمسك عمرو بيدي ووضع بها خاتم الخطبة، قائلاً، لم أتخلَّ عنه حتى بعد فراقك، ظل رفيق سترتي وكأنه يثق بك، يعلم أن مشاعرنا صادقة سيكتب لها الحياة...

سرعان ما لملمنا الموقف واستجمعنا شتات أمرنا هناك أمور يجب البت النهائي بها كي تغلق للأبد ولا تظل عالقة في مهب الظروف فما العمر إلا لحظة علينا جميعًا اقتناصها...

****

لمياء

أنتظر ولا أنطق، جميعنا في حالة انتظار متفاوت الأجل والرغبة، أنتظر شريف ولا أعلم كيف سيأتي؟ .
ولكني أنتظر معجزة إلاهية تجلبه لي، وضعت القلم أسفل وسادتي، لا وحي يستجدي ولادته الآن، أصبحت ذاكرتي خربة بلا إلهام، نفسيتي عالقة بين ابنتي ووالدها، تجلس أركيدة مع مجدي على الأريكة يتناقشان بأصوات خافتة لا أفهمها حول تفاصيل زفافهما بعد غد، الفرحة المنتظرة، سمعت صوتًا مغايرًا لهما، معاكسًا في الاتجاه:
-مام.. مم.. ماما.
خطفت بصري إلى الباب، على يقين أني أتوهم، ولكن رائحتها تعبئ الغرفة، دخلت حور بخطوات متفرقة، تستند على براءتها، حذائها يزقزق مثل عصفور الكناري، فستانها زهري قصير يبرز ملامح نمنمت جسدها الصغير، كائنات لذيذة تثير شهيتك البرية للاقتناص والأكل، لا أبالغ في شعوري، تستحق الأكل بالقبلات، اعتدلت عندما تأكدت من وجودها، أسرعت أركيدة إليها متمتمة:
- حبيبتي الصغيرة، تعالي يا عمر خالتك.
قبلتها بهدوء ثم دفعت بها لي تعلم أني جائعة لرائحتها، مريضة بفقدها، وضعتها على صدري قبلتني بفم مفتوح كعادتها، وضعت سنتاها على خدي ولم تقضمه، هذه مشاعر الفتاة، حب كبير ورأفة سماوية، لامست جرحي فخف وجعي، طابت دنياي برؤياها، رفعتها بعيدًا عن الجبس خشيت المفاجأة..
دلف شريف بعيون ذائبة حالمة مثلما كان، أعرف تلك النظرة، سجلتها خيوط الشمس ذات نهار عندما قال لي أحبك..
أقبل قائلاً تحية الإسلام ثم دنى من كفي فقبله، عينانا تتحدث بصمت، اعتذر وغفرت، اعتذرت وغفر...

-كيف أنت؟
- لا،
-أنت أولاً.
- أحبك، أنا أكثر.
- أعلم مدى حبي لك.
- وأنا أيضًا، كل فرد يشعر بارتفاع حرارة قلبه ولا يستطيع تحسس قلب شريكة بشكل يقيني لذا يتمحور حول ذاته معلنًا فوزه والحقيقة أن الحب شعور خفي لا يعلم صدقه إلا الله..
أركيدة ومجدي يقولان بصوت واحد، إذًا نتزوج ونحن مطمئنان عليكم..
ابتسمنا لهم ثم قرر الدكتور خروجي من المشفى، نظر الطبيب إليّ سرًا ثم غمز بعين واحدة يهنئني على عودة شريف..

****

النهاية

أصوات الفرح ممتعة، السعادة للعريس والعروس، هنيئًا لهما، جلبنا حور وجئنا سويًا للحفل، أرتدي _سلوبيت_ بنطلون سواريه لونها أسود، ببرق فضي، يتلألأ كلما خفقت الأنوار، أخفي شعري بحجاب صغير فضي، دخلت القاعة محمولة بين ذراع شريف، قضى المسكين يومين في خدمتي أنا وحور، كفر عن نزواته العابرة، ولا زال، البنطال واسع يُخفي الجبس أسفله، وصلت إلى طاولة مناسبة وقريبة من العروس، أجلسني شريف ببطء كمن يحمل مزهرية من الزجاج.
أقبلت هديل بفستان فضي بسبعة على الصدر تقابلها سبعة في الظهر، الأعمال أعطتها جرأة أكثر مما كانت، لا بأس فصغيرها أصبح رجلاً وسيمًا ببذة رمادية تناسبه، يمنى تقف على طاولة أخرى مع عمرو ووالديه، تتناول كوب عصير طازج، ترفع يدها لأي سبب تريد أن يعلم القاصي والداني أن الآنسة المبجّلة تمّت خطبتها أخيراً... شغّل مسؤول الأغاني أغنية للأصدقاء، نادى بصوتٍ مرتفع قائلاً بحماس:
"أصحاب العروس يقفن حولها لالتقاط بعض الصور التذكارية."
أسرعت الخطى نحو أركيدة وهي تقهقه من سرعتي، نظرت الفتيات على شريف الذي يحاول التقاط أنفاسه بعد حمله لي طوال الطريق..

قفز كمن صُعق بالكهرباء، جاحظ العينين، مشرع الفم، لا ينطق بكلمة، يشاهد فقط، يميل برأسه زاوية اليمين فيجدني أرقص معهم، يميل نحو اليسار فيجدهم يبتسمون بدهاء ماكر...

كشف عن غيظة، ظهرت أسنانه وهي تصطك في بعضها، انقض علينا بشراسة يحاول الإمساك بي، هربت منه أمام الجميع، الحفل مستمر ونحن ندور حولهم. يقول بصوت مرتفع غاضب:

- لمياء اثبتي مكانك.

- لا، لا أتوقع ردة فعلك.

- كيف تلاعبتِ بي يا مجرمة، صدقتك فعلاً.

- كنت أنتقم لكرامتي، أريد أن أعود إلى زوجي حبيبي ولا أريد التنازل عن كبريائي وحقي. يعيدها ثانيةً:

- حقك، تعالي هنا.

نتبادل الحوار بشكلٍ طريف، نتكلم كلمتين ثم ندور. لن يمسك بي.. بدأ صوتنا في الانخفاض مع صوت الموسيقى، زاغ مني، بحثتُ عنه إلا أن ظهر فجأة لاصقًا يده على خصري يسحبني برفقٍ نحوه قائلاً بشوق:

- أحسن خدعة...

- حبيبتي لا تتركيني لنفسي أبدًا..

معكِ أنا مبصر وبدونك أعمى لا أقدّر ماهية الأشياء.

****

تمت

. . . . . .

نبذة عن المؤلفة

الاسم : أماني عنان
تخرجت من جامعة الأزهر كلية الصحافة والإعلام قسم العلاقات العامة والإعلان بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف بدأت مشوارها الادبي كقارئه نهمه فترة الجامعة أثناء عملها بالجريدة المحلية اخبار البحيرة
عملت صحفية لفترة قصيرة ثم مسؤولة علاقات عامة
دبلومة في علم النفس المتكامل صحة نفسية واستشارات أسرية وتربوية
صدر لها :
_1سر بنات الغرفة:
النوع : اجتماعية رومانسية
اللغة : فصحى
فكرة عن المحتوي :
هي رواية متفرعة كثيرة الأحداث تتسم برتم سريع ومبسط للدخول في تفاصيل الشخصيات تحكي قصة ست فتيات جمعتهم غرفة مشتركة لكل واحدة منهن سر تخفيه بحرص عن غيرها ولكن مهما حاول الإنسان وأتقن دورا ليس دوره سوف يفضح أمره في النهاية ، تتحدث عن خيانة الصديقة لصديقتها حتى وصل الحقد لدس السم كي تتخلص منها تماما كما تحكي دواخل فتاة أخرى تكذب وتدعي أشياء ليست بها كي تحصل علي حب شاب من طبقة أعلي من طبقتها الإجتماعية في حالة سردية فيروزية سوف تنقلكم الكاتبة إلى عالم مواز من الأنفس المربكة بكل المشاعر والأفكار ..

رواية : 12 بتوقيت المؤامرة
النوع : نفسية إجتماعية
صدرت عن دار أكوان للنشر والتوزيع
رواية : تيوليب من أرض الموتى
تتحدث عن الجريمة والغموض في الأرياف

صدرحديثًاكتاب بعنوان"اتصل بنفسك"
عن دار طفرة للنشر والتوزيع
نوع الكتاب : علم النفس والتنمية البشرية
يبدأ بتعريف النفس والتواصل معها داخليا من خلال معرفة العقل وكيف يعمل وكذلك القلب وخارجياً من خلال وضع العلاقات والأحلام والطموحات والمشاكل والأزمات في نصابها الصحيح كي يستطيع الفرد الاتصال بنفسه في سلام وسعادة

نوفيللا الكترونية*
تحت عنوان الحبيب المجهول
***كتيب خواطر**
مرافيء الأنتظار .. كلمات في الحب والحياة
تحت الطباعة :
كتاب .. اتصل بنفسك في التنمية البشرية وعلم النفس
دار طفرة للنشر والتوزيع
نوع الكتاب : علم النفس والتنمية البشرية
يبدأ بتعريف النفس والتواصل معها داخليا من خلال معرفة العقل وكيف يعمل وكذلك القلب وخارجياً من خلال وضع العلاقات والأحلام والطموحات والمشاكل والأزمات في نصابها الصحيح كي يستطيع الفرد الاتصال بنفسه في سلام

لينك صفحة الفيس بوك
https://www.facebook.com/amany.anan.5